5885

بروفة رقص أخيرة

قصص

اسم المؤلف : نسرين طرابلسي
عنوان الكتاب : بروفة رقص أخيرة
الناشر : المدى
الطبعة الاولى : ٢٠٠٨
الحقوق محفوظة

Author: Nisreen Trabulsi
Title:Last Prove for Dance
Al- Mada P.C.
First Edition: 2008
Copyright © Al- Mada

دار المدى للثقافة والنشر

سورية- دمشق ص.ب.: ٨٢٧٢ او٧٣٦٦ -تلفون: ٢٣٢٢٢٧٥ -٢٣٢٢٢٧٦-فاكس: ٢٣٢٢٢٨٩

Al Mada Publishing Company F.K.A. - Damascus - Syria
P.O.Box . : 8272 or 7366 .-Tel: 2322275 - 2322276 , Fax: 2322289
www.almadahouse.com E-mail:al-madahouse@net.sy

بيروت-الحمراء-شارع ليون -بناية منصور-الطابق الأول - تلفاكس: ٧٥٢٦١٦-٧٥٢٦١٧
E-mail:al-madahouse@idm.net.lb

بغداد- أبو نواس- محلة ١٠٢- زقاق ١٣-بناء ١٤١
مؤسسة المدى للإعلام والثقافة والفنون
E-mail:almada112@yahoo.com

لا يجوز نشر أي جزء من هذا الكتاب أو تخزين أي مادة بطريقة الاسترجاع ، أو نقله ، على أي نحو ، أو بأي طريقة سواء كانت الكترونية أو ميكانيكية ، أو بالتصوير ، أو بالتسجيل أو خلاف ذلك ، إلا بموافقة كتابية من الناشر ومقدماً .

All rights reserved. Not part of this publication may be reproduced stored in a retrieval system , or transmitted in any form or by any means ; electronic, mechanical, photocopying, recording or otherwise, without the prior permission in writing of the publisher.

نسرين طرابلسي

بروفة رقص أخيرة

إهداء

إلى سارة بلال:

كبيـــرةٌ أنت يا صغيرتي ومختلفة
أرقصُ ملءَ غربتي وأُودعُ بين يديكِ القلبَ ومِفتاحَ المدينة
فإذا لاح الأخضرُ على مشارف دمشق
أيقظيني..

أسلوب جديد

معك حق يا سيدي، أنا مدرّب على احتمال أصناف التعذيب والقسوة، في الجيش كنت ألتهم بصلةً معروقةً بقشرتها دون أن تدمع لي عين، ومن كثرة الزحف صار جلدي في كل المواضع أخشنَ من جلد تمساح.. لكن عندما بدأت تدلّكُ كتفيَّ بأصابعها الملبن، وصار المحقق يمازحني كصديق، تكلّمت.. تكلّمتُ حتى قبل أن تصل إلى خاصرتي..

فاجؤوني يا سيدي، فاجؤوني!!

المهرة يا سيادة القائد

لم أكن أعلم أن البرّ يزهر إلا بعد أن جاء الربيع ورأيته بعيني ينتشي، كأي جسد خشن تحت لمسات ناعمة. استيقظت الزواحف مغادرة أوكارها، واحتفلت الكائنات بالخصوبة مع بعضها البعض دون أن يخدش ذلك حياء الكون. في المساحات الممتدة أمام النظر خرجت من كل بقعة رطبة زهور صغيرة شوكية الملمس صفراء، بنفسجية، وأحياناً بيضاء. وبأخضر طحلبي شحيح بدأت الحياة بكتابة عنوانها الرئيس بخط واضح وأزلي.

تأثّرنا نحن جنود السّريّةِ التاسعة المستنفرين على الحدود بحماوة الصباحات المشمسة وطراوة الليالي الباردة لشهر نيسان. كان السّاتر الترابي الذي أقمناه يفصل بضعة أمتار بين دولتين على أرض واحدة، بحيث كنا نراهم في الصباح يتجولون على الطرف الآخر ويرمقوننا بكسل، وكثيرا ما رفعنا أيدينا بالتحية لهم، وتبادلنا نظرات أشبه بالابتسامات المطمئنة. الدفء يشتدُّ والنهارات تقصُرُ والملل يخفّفُ من عزمِ جاهزيّتنا، في أيام لا حربَ تلوحُ فيها ولا سلام يتأكّد. ولتزجيةِ الوقت، أصبح شغلنا الشاغل مراقبة قطيع خيول بريّة يمرح بحريّة في المساحة الفاصلة بين دولتين. نسمع

هدير حوافرها من بعيد يدكّ الأرض تحت أقدامنا، تهتزُّ حجارة موقد الحطب، ونتأهّب جميعاً للمشهد السّحريِّ لقدوم جحفل متّسق من الخيول في عَدْوٍ متماوج وصهيل أصيل.

كنّا نحسد الخيول على انطلاقها المنظّم بلا أوامر، نتناوب المنظار لنلقي نظرة قريبة عبره على ألوانها وأشكالها وهي تخرج من عجيج غيمٍ غباري تنفضه من الأرض وتسبح فوقه كأنها بحق مركبُ الريح..

لقطيع الأحصنة البرية هذا حكاية أسطورية؛ يُقال - على ذمّةِ راويها الضابط البيطري "مطارد سعفان" - بأن ذلك حدث في (سَنَة الخنّاق). عافت الخيول العلف واعتراها الهزال، واجتاحتها نوباتُ ارتعاشٍ من أثر حرارتها العالية. نزَّ من أنوفها وأشداقها مخاطٌ سميكٌ أخضر، وتورّمتْ أفكاكها بخرّاجاتٍ جرثومية. كان العلاج الوحيد المعروف في تلك الفترة هو قتل الحصان، حين لم تكن حتى الأمصال المضادة المخصصة للاستعمال الآدمي قد وصلت قرى منطقتنا النائية. أطبقتْ سَنَةُ الخنّاق على أعناق الفرسان، ولم يجرؤ أحد منهم على مس حصانه بسوء. ركبتهم الهموم وسارت بهم إلى مسارب الغمِّ والكرب، واعتلت المنطقة كلَّها سخابةُ كآبة شديدة. حتى توصّلوا إلى قرارٍ بلا قرار، أن يطلقوها في البرية تواجه مصيرها المشؤوم، فمن مات منها تكفّلتْ به الطبيعة، ومن كُتِبَ له الشفاء عاد أو استعاده صاحبه.

قامَتْ الطبيعة بمهمّتها، فهزمت ضعاف البنى من الأحصنة وأعانت الأصايل منها على استرداد عافيتها، ومعها حريّتها

وجموحها. فالتقت الخيول من جديدٍ في ربوع البرّ، لتتزاوج وتتمازج وتشكّلَ قبيلةً مستقلة.

كان الغروب يوشك أن يسقط وراء الساتر ويسلّم العهدة لليل، حين أطلّ المهر الأبيض وحيداً لاهياً في كنف حريته. سلبنا المشهد ألسنتنا، ظلّه يطارده حركة حركة، كمهر آخر أسود اللون، وشيئاً فشيئاً، حين بسط الليل سلطانه، هبط المهر الأسود وارتفع الأبيض هالةَ نور. تعلقنا بالمهر الصغير تعلق عائلة بحفيدها الأول، ليس تماما، في الحقيقة كان أجمل كائن وقعت أعيننا عليه منذ ستة أشهر. كبارقٍ يرسله القطيع قبل أن يُسمَعَ رعدُ قدومهم، يلاعبُ عضلاته الفتية بمرونة فوق قوائمه الدقيقة. مرة يتلوى قافزاً يميناً، ومرة يساراً، ثم يدور حول نفسه مستعرضاً كحلقةِ نارٍ شعرَه وذيلَه، كفتاةٍ تبالغ غريزياً بتجريب أشكال صعبة من قفزة الحبلِ، إن أحسّت بعين رجلٍ ترصدها. تيقنّا بأنه أحسّ بنا فازدادت فتنته، وعاد يندسُّ بين الأحصنة الدهماء والحمراء والبنية والرمادية والمرقشة بالبياض. وحدَهُ كان بياضُه كليّاً كمعجزة، وحدَهُ قررنا الاستيلاء عليه.

كرعاة البقر في الأفلام، امتطينا ظهيرة اليوم التالي سيارة نقل الجنود والمعدات، وتربص اثنان منا في الجزء الخلفي المفتوح مُحكِمينَ عقدتيِّ أنشوطتين على أهبة الالتفاف حول عنق المهر.

مطارد سعفان رفض المشاركة وشيّع محجوباً بغبارٍ نفثته عجلات السيارة بوجهه قائلاً:

" كان غيركم أشطر".

لم يثنا إعراضه أو حديثه عن جهود أصحاب الخيول الهستيريَّة لاسترجاعها. فبعد أن أخبرنا قائد السّريّة أنَّ سعر المهرة الأصيلة مليون ليرة عدّاً ونقداً حطّ على رؤوسنا طير الأرق. مساء اليوم السابق تأكّدنا أنها أنثى، أنثى بخصر ضامرٍ وورك لدنٍ مرن يطاوعها كيفما شاءت، تهزُّ شعرها الأشقر متعمّدةً اصطناع اللهو بينما هي تدعونا لنلقي القبض عليها مجتمعين، ولن نرفض الدعوة. مليون ليرة مبلغ أكبر من أن نحتمل جموحها عن بعد. لا بدَّ من محاولة.

اشتمل وضع الخطة نقاطاً عدة، صِغَرُ سنّها، ونزوعها إلى الانسلاخ عن القطيع، وعاهة واضحة في حافرها الأمامي الأيمن، كأنها ترتدي كَسْرِيّةً شاميّة، شيء أشبه بحذاء علاء الدين. مطارد سعفان البيطري الذي كان مستاءً من الفكرة برمتها، استفاض ليلاً في شرح شاعري حزين عن تشوّه حافرِ مهرةٍ فتية سارحة في البيداء الوعرة بلا حدوة، لم يعننا من كلامه سوى أنه دلّنا دون أن يدري على نقطة ضعفها الأكيدة، وانطلقنا.

تملّل القائد وراء المقود مدخّناً سيجارته العاشرة بنفاذ صبر، تاركاً المنظار يتدلّى معلّقا في رقبته. نزلتُ أمشّي قدميَّ الخدرتين وأهوّي قميصي المبلَّل بعرق الترقُّب، بينما اشتد نقاشُ العسكريّيْن المتصيّدَيْن في خلفية السيارة حول جدوى التوُّقف وضرورة البحث عن الطريدة عوضاً عن انتظارها؛ حين هلّت. رمى القائد سيجارته

ودسَّ عينيه في عينيَّ المنظار. سمّرتني المفاجأة في مكاني وأنا ألمحها تتهادى ببطءٍ مقتربة من نصف الدائرة التي حددناها كمكانٍ مثاليٍّ للإحاطة بها. صحوت من جفلتي على المحرِّك يدور وانطلقت السيارة بجنونٍ تاركة رجلي اليمنى خارج الباب المفتوح، فالخطَّة تقتضي اختيار لحظةٍ حاسمة لحشر المهرة بين مناورةٍ متحرِّكة وثبات الساتر الترابي.

لم تنفعنا كثيراً تقنيات المطاردة المعروفة، تلك التي لا رجعة منها إلا والهارب بحوزتنا، يُسهِّلُ مهمتَنا الخوفُ المزروع في قلوب البشر والسّجنُ الساكنُ في أحلامهم ويقظتهم. أما المهرة فكانت تتسلَّى بتفادي الحبال وتتعمَّد إبطاء حركتها في استعراضٍ مبهرٍ لخببها الموزون. مما فجَّر في أعماقنا ثورة حنقٍ فضحتها بذاءاتٌ اندلعت من أفواهنا.

أفلتت السيارة غيرَ مرةٍ من سيطرة القائد، كان يزيد السرعة فتنزلق العجلات فوق الرِّمال أكثر من الوجهة المطلوبة، وتمنح المهرة فرصتها لتغير مكانها، لتعود الحبالُ مرخيةً بخزيها في كفوف العسكريَّيْن. هدأنا لترقدَ فورةُ الغبار، وحين انقشعت تلال الرماد من الهواء برز رأسها الصغير كأنه خرج من كثافة العجاج، وعيناها الصافيتان تقدحان تحدِّياً حاداً.

مالت الشمس كللاً، وساد صمتٌ لا شخير فيه ولا نخير، تتخلله حمحمة المهرة الداشرة. ثار قائدنا وزمجر بين شاربيه "يا باطل"، توحّشت ملامحه وهو يعض عقب سيجارته المنطفئ. عدّل قابض

السرعة وحاول الانطلاق، فلم تطاوعه العجلات، صاح العسكري من الخلف "غرّزنا"، وزأر محرك السيارة نافثاً الدخان الأسود.. مرةً.. مرتين.. فقط.

بتقريب مدهش لم تُعقْهُ عاهة حافر مشوه ابتعدت المهرة باتجاه الساتر، ثم أسرعتْ تعدو بخفّة حتى علت التراب الفاصل بين دولتين. توسّطتْ قرص الغروب، نفضتْ غرّتها عن ناصيتها بخيلاء وانتظرتْ لحظةً طويلة، ثم استدارتْ رافعةً ذيلَها بشموخ وانحدرت متسلّلةً إلى الجانب الذي لا يمكننا النفاذ إليه. اختفت كأنها فكرةٌ مستحيلة، ولم يبق منها سوى صدى ضبحٍ وجلجلة.

٢٠٠٧-٢-٢٢

قوى خارقة

دخل الصَّبر من الباب فهربَتْ لامبالاتي من النَّوافذ، دخلَتْ الوحدة من النَّوافذ، فلم أعد أتذمَّر من رفقة الظِّلال الثَّقيلة. وملأتْ الغربة حقائبي بأبجدية الإبداع، فاستعبدتني. وعلّمني الحبُّ فنون الغفران، ففشلْتُ في إلقاء القبض عليه!!

في لحظة صدق، تمنَّيْتُ أن أهدم كلَّ الدروس، لأطلق شهوتي في الكسل، وأطرد الظِّلال الثَّقيلة، وأعود حرّةً خاوية، وأزجَّ بالحبِّ في سجن حساباتي..

لكنّ بعضَ الكذبِ تضحيةٌ صادقةٌ قولاً وفعلاً وديمومة.. وعليه تشيّدُ حياةٌ كاملةٌ صرحها المتين.

فتوحات أول كذبة

أول مرة كذبت فيها عن وعي ودراية، كانت للغياب عن المدرسة. تمارضت وتلويت في فراشي وأصدرت أنيناً جارحاً وعصرت دموعي بإخلاص حتى ارتفعت حرارتي فعلاً وتورمت لوزتاي واحمرّ سقف حلقي. يومها لم تذهب أمي إلى وظيفتها وجلست على حافّة السرير تتمتم سوراً صغيرة وتدهن صدري بمرهم "فيكس".

في ذات اليوم تعلمت معنى الندم، أسيرة فراشي، وأفكار الشقاوة واللعب والتملص من مذاكرة الإملاء تموت أمام عينيّ الناعستين من فتك الحمى. وبدراماتيكية خالصة أجرت أمي اتصالها بالمدرسة لتطلب تأجيل امتحاني إلى اليوم التالي. بدأت أهلوس بفسحة التسلية بين كل حصتين، وتمرُّ سطور الإملاء كلمةً كلمة، هنا شدّة وهنا همزة على نبرة، وتلك تاء مربوطة إلى أنوثتها، وكان بإمكاني أن أجتازها ببساطة أكثر من مكابدة الغثيان لإبقاء ميزان الحرارة تحت لساني دقيقة واحدة.

في نفس اليوم جاءت ابنة الجيران لتسأل عن أسباب غيابي وتعطيني وظائف اليوم التالي. وعثرتُ على فرصةٍ ذهبيةٍ لها لتفسد

كلّ شيء وهي تفتح حديثَ كبار مع أمي وتخبرها بأنني أكلت "بوظة" وأنها نصحتني بعدم تناولها وأنها تعتقد بأن البوظة في الشتاء مضرةٌ - كما تحذر أمّها- وبأنها أخذت عشرة من عشرة في الإملاء التي كانت سهلةً جداً!!

في ذلك المساء، تعلَّمْتُ أنَّ صدور البنات ليست صالحةً لإيداع الأسرار، وبحنق مرير ابتلعْتُ ملعقةً كبيرةً من دواء السُّعال الأصفر وكدْتُ أستفرغ قوامَه اللّزج وجرعةَ الماء اللاحقة.

قبل أن يشتدّ السواد فاض بي الأسى، وضاق صدري بعزلتي الاضطراريَّة مخافة انتقال العدوى إلى أخي في أيام الامتحانات. أنصتُّ بكآبة إلى صوت ضحكاته أمام التلفزيون في الغرفة المجاورة، وإلى ثرثرة والدتي في كل مخابرة هاتفية وهي تسرد لمن هبّ ودَبّ حكايةَ بوظة الشتاء وتشكو: نبت الشَّعر على لساني وما بيسمعوا الكلام... هذه آخرتها!!

تكسّرت عظامي من الاستلقاء تحت أكداس الأغطية الصُّوفيّة وشقّت دموعي طريقها إلى الوسادة، واختنق صوتي بلعابي وأنا أتوب تلك اللّيلة بمناجاةٍ خفيضة، أتوب بصمتٍ توبةً نصوحة.

أما المرّة الثانية التي كذبْتُ فيها .....

٢٠٠٧-١-٣٠

لجوء

سردت معاناتها وهي ترتعش، وتدخّلت عليه مستنهضةً نخوة الشهمِ فيه:

- دخيلك يا سيادة الوكيل، لا أحد غيرك يستطيع أن يوقف هذا المدير عند حدّه.. لا أعرف كيف أشرح لكَ، لكنّني متأكدة أنك فهمت.. لقد هدّدني.. وأنا خائفة. قالوا لي ليس لكِ إلا سيادة الوكيل، إذا كان هو مدعوماً وصاحب واسطةٍ كبيرة فالوكيل رجل طيب ومستقيم وأعلى منه منصباً وسلطة..

لم يرفع الوكيل عينيه واستمر يخربش بتوترٍ على ورقةٍ أمامه، كطفلٍ حزينٍ شهد للتوِّ مشهدَ عنفٍ بين والديه!!

مخلوة

نوبة الحراسة في الفلاة المقفرة بالنسبة لنا نحن شباب الجزيرة، ليست مهمة سهلة. صحيح أن أغلبنا من الرعيان، وأغلبنا اعتاد منذ صغره على اللّحاق بالماشية والإبل وأَلِفَ ثغاءها وحداءها. لكننا نملك رؤوساً محشوةً بقصصٍ غريبة وحكاياتٍ لا تُصدَّق عن حوادث المراعي وواحات الصحراء، وليالٍ أبطالها سرحوا وراء القطعان في البيد واشتبكوا في شتى الصراعات، مع قطاعِ طُرُقٍ من لحمٍ ودم أو مع جحافلَ خرافيةٍ كالأشباح.

أما جداتنا فأكملْنَ نواقصَ القصص وزعزعْنَ مبالغات سِيَر المجالس، وحَكَيْن عن فحولٍ ابتلعتهم الرّمال، وآخرين أغرتهم الصخور بهيئاتها المتغيّرة في ليالي الضّباب، ورجالٍ عقدتْ ألسنتَهم عيونُ الأفاعي والضّباع ولحستْ أدمغتَهم بناتُ الجان وحسناوات العفاريت.

لكنّنا الآن حرّاسُ غايةٍ أسمى. نحن حماة الوطن على الحدود، شباب المستقبل وعلينا تتوقف مهمّاتٌ جِسام، لمنع المتسللين، ودحر المتجسسين. نحن السلاح اليقظ والعيون التي لا تنام، نحن اليوم القلق لغدٍ آمن. لذا تشبّث كلٌّ منا ببندقيته وشجاعته وتناوبنا

الحراسة في أشرس بردٍ يمر على المنطقة ويخصُّ صحراءها بقبضةٍ من صقيع. وبقدر ما تهجم الحكايات القديمة على رؤوسنا، بقدر ما تَهِنُ قوّتها وتحلُّ محلَّها صورٌ واقعية قاسية تعيد تشكيل رجولتنا في الظلام.

مرّ وقتٌ طويلٌ لم نطلق فيه رصاصة، والتصاق البوارید في جنوبنا جرّد الذئاب من رهبة عوائها، وطرد الحيوانات الأكثر جبنا ومكراً وتسللاً، فلم يعد أحد يصعد إلى المحرس أعلى السلّم المعدني، وصار قُرْبُنا من خيامِ المعسكر يسهّلُ علينا إيقاظ بعضنا للتّبادل ويغذي جذوةَ النار التي لم تنطفئ.

لكنَّ الصوت هذه المرّة كان مريعاً، حَلَفَ مُزاحِم بقبر والدته أن الكلاب الشاردة كانت خائفة تعوي بشكل جماعي ومُنْذِرٍ بالخطر، وأن المخلوق كان له شكلُ ظهرٍ مائلٍ كزاويةٍ حادَّة ورأسٌ ضخمة.

أيقظتْ رواية مُزاحِم ذاكرتنا الجماعية، وبدأنا نتحزّر اسم مخلوقٍ له هذا الشكل الغريب. الكلب وابن آوى والضبع والذئب؛ أسماءٌ مألوفة وقريبة ولا تخيف في موطنها الذي أصبحنا فيه شركاء منذ ستة أشهر. لكن حوّاسّ كان يرتجف عندما أيقظنا جميعاً في الليلة التالية، فخرجنا من الخيمة جميعاً ننصت لعواء الكلاب يتلوّى بين دوامات الريح. وأصبح لدينا شاهدان الآن يُقسمان أنَّ للمخلوق ظهراً مائلاً ورأساً كبيرةً تتبعه ككرة العلّيق.

انتشر الخوف في أجسادنا كالجرب، وبدأ يهري الأمانَ في قلوبنا. الأمانُ الذي نحن أساساً قادمون لحمايته. أربع ليالٍ طويلة طاردنا فيها لغز المخلوق، وأطلقنا خلالها رصاصنا بكلِّ اتجاه. أربع

ليالٍ عدنا فيها للصعود إلى المحرس المرتفع، وكنَّا نتظاهر بالنوم حرصاً على سمعتنا كجنود، مخبِّئين الأسلحة تحت الأغطية في عناقٍ وَجِل.

في صباح اليوم الخامس، ظَهَرَ المخلوق جهاراً نهاراً، بظهرٍ مائلٍ يستند على مؤخرةٍ مهروسة القوائم الخلفيَّة، ورأسٍ علق بها كيسٌ نايلون حين كان ينبش رزقه من كوم نفايات كبير، تنفخ فيه الريحُ أنفاسَها فيمتلئ بالهواء، يحمله الكلبُ العاجزُ ويسرحُ به ببطءٍ طيلةَ الليل.

تأهَّبت بنادقنا متّفقين على قتله.. لا شفقة على آلامه بالطبع، بل انتقاماً لرجولتنا من ذعرٍ أصيل كشفه تسكُّعُ الكلب الكسيح حول خيامنا. حكايةٌ يجب قتلها وإلا ألهبَتْ مخيِّلة مضافةٍ حاشدة بالتّجار والرعيان، والنساء الصَّاغيات خلفَ الحُجُب.

٢٠٠٧-٣-٢٧

كيمياء

فشلت التّجاربُ كلُّها في إضافة الماء للماء.

للحصول على نتيجةٍ مؤكّدة كان لا بد من أحماض المعاناة وأسيد الشر وأملاح النكد وفوسفور المفاجآت ونترات الغضب وخلاّت الخيبة وبُرادة التناقض وأكاسيد الكربون المتنوعة. وقف الإنسان ينظر بسعادة إلى الدورق يفور بألوانٍ وأبخرةٍ برّاقة. تجرّعَ المزيجَ دفعةً واحدة، وتكوّر على الأرض بألمٍ منتظراً خروجَ الآخر.

علامةٌ فارهة

حياتنا صارت مهزلةً سريعة. جملةً لحنيةً مسروقة، وجبةً مشبعة بالدهون، رسالة قصيرة مكرورة حدّ البياخة، وصورة سكوب..

وفي انتظار انديا‌ح السنين المزحومة لمتسع من الرّكض الجانبي، مرَّتْ أربعٌ منها قبل أن أفي بوعدي وأوصل الأمانة إلى صاحبها.

على فراش المستشفى، مُدِّدَت أختي الصغرى بوجهها المدموم، تبتلع الكلام وتنفث الدَّم وتصف لي مخبأ وصيَّةٍ كتبَتْها حدساً بدنوّ ساعتها. تكابد الموت وتستمهل رسوله العجول لتشدّ يدي بأقصى مستطاع أصابعها المهشَّمة، متجاهلة إصراري على نطقها بالشَّهادتين. الرِّسالة والعنوان واسمُ المرسَل إليه كانوا همّها الأخير قبل أن تنفخ زهرةُ شبابها أوراقَها الثلاثين في عيني.

مرَّ ألفٌ وأربعُ مئةٍ وستون يوماً من الصراع، أجاهد في لياليها مكابس النوم المثقلة بالحزن، وأبايع في نهاراتها عهدي المقطوع في عنقي لأختي الميتة.

"سلّميها باليد"، كلمتان جَرَّدتا كلَّ ربيع مرّ من اخضراره، كلَّ صيف عَدَا دون بهجة، كل خريف زحف بلا أمل، كل شتاءٍ ولّى

حاملاً فوق يأسه عطش الغيوم. والأجندة تخصف من عمري ورقةً ورقة لتعرّيني في ديماس عزلتي. ماتت أختي الصغرى تاركة في عهدتي خاتمةً معلّقة لقصّة حب، ساحبةً أماني معها إلى القبر كضمانٍ أكيدٍ لتنفيذ الوصية.

ما أن أصبحتْ التَّذكرة التي ستحملني إلى القاهرة في حقيبتي حتى عاد تنفسي للانتظام. وعندما طاوعتني ابتسامتي في وجه المضيفة السمراء عرَفْتُ أنَّني أسير في الطَّريق الصَّحيح. غفوتُ قليلاً وحلمت بأنَّ أختي ترخي قبضتها عن يدي وترسل لي قبلةً في الهواء.

طيلة أربع سنوات أدمنْتُ مَدَّ يدي إلى الظرف الأزرق، وتحسُّسِ ورقةٍ سميكةٍ مطويةٍ فيه ودائرةٍ قرصٍ مدمج. لم أعرف الكثير عن هذا الحب سوى أنه كان علاقةً بريئةً بالمراسلة. حدّثتني المرحومة سرّاً عنه بشاعرية الدماشقة الأولين، مشبّهةً كبرياءه بإطلالة هامَةٍ على واد، ولطفه برقّة ياسمين الصباح المتناثر على الأرصفة، وثقافته بصفحات تاريخ مدينة ثائرة. حينها، لم آخذ المسافةَ الفاصلةَ بينهما على محمل الجد، وظننت أن حسيّة الواقع ستغلب مخيلةَ الفتاة التي رفضت المتودّدين واحداً إثر آخر، حتى لحظة زفافها عذراء لملاكٍ مباغتٍ آسرٍ كالموت. وفي همسها المجروح بالنزيف نبست شفتاها باسم عادي جداً، يحمله على الأقل عشرون مليون رجل مسلم، إما مجرداً بذاته أو مُلحقاً باسم آخر. أخذت شفتاي تلاعب حروفه الأربعة بصمتٍ في التاكسي الذي يطوف بي

ميدان المساحة تمهيداً للدخول إلى حيّ الدقي؛ حيث نقشَتْ العنوان بذاكرتي بإصرار صوتها الواهن في سكرةِ الوداع.

ترجّلْتُ وسط حيٍّ عادي يشبه بلونه الهبابيِّ أبنيةَ دمشق المُرْهَقَة. وهنا، دهس قلبي وجعٌ صادم. وجعٌ كرويٌّ في مداراتِ الحظ يتوجّس وقوفَه على رقم خيبة. فإنْ وجدْتُهُ فلراحةِ نفس العاشقة، لتغمضَ عينيها كأيِّ ميت وتكفَّ عن البحلقة ملءَ جفنيَّ كلّما آويتُ للنوم. وإنْ لم أجدْهُ فحكماً سأبقى على هوسِ الذكرى مشدودةً إلى خطّافِ وصيَّتها الثقيلة، محرومةً من النعاس والنسيان.

في مصعد برج ٣٢، حاولتُ استحضارَ صورةِ وجههِ التي رأيتها مرةً واحدة. كنّا متجاورتين في السينما نتملّلُ من ورطتنا بسخافةِ فيلمٍ عربي، فضاءَتْ شاشةَ هاتفها النقّال في ظلمةِ الصالة ومالت على كتفي قائلةً باعتزاز:

"انظري هذه صورةُ حبيبي".

الصُّورة المسطّحة لم تحمل أيَّ علامةٍ فارقة لتَثْبُتَ في وعيي حتى ساعة البحث عن الأصل، ولم أجد لها أثراً في تركةِ أختي. بين كلِّ الأرقام المدوّنة في حافظة هاتفها لم أعثر على رقمٍ برمز دولي، ولم يرنّ الهاتف أبداً طيلة أربع سنوات ليسألني شابٌّ بلهجةٍ مصريةٍ عن غيابها. الموتُ لم يفسح لها ثانيةً إضافية لتُمرر لي كلمة السرِّ للدخول إلى بريدها الإلكتروني. خوضُ المسافة كان وحده سبيلي الشاق لطمأنة روحها الهائمة.

تردّدَتْ خطوتي أمام الطابق السادس عشر، كعاشقةٍ في لهفتها

الأولى، ثقّفَتْ رمح جرأتها وسنّنَتْ رأسَ خجلِها وجاءَتْ تقتحمُ دار الحبيب. تطابقت الكنية على الظرف الأزرق مع تلك المطبوعة على لوح نحاسي معلق فوق عين الباب.

جاوب صوتٌ عجوز لمستي الخفيفة للجرس، فتَحت لي:

– صباح الخير ياحاجّة، محمد موجود؟

– تعال يا محمد في ست عايزاك.

قذفَتْ نداءها داخل الشّقة وانصرفت، وترجرجَ فوق رأسي سيلُ احتمالات: مُقعد، معقّد، مجرم، مشوّه، طيّب، شرّير، كهل، فتيّ، وفيّ، غدّار، ملتزم، مستهتر، يذكرها، يحبّها، نسيها..

خطوات تقترب، وينفجر في قلبي كلّ شريان لم يحتمل انفعالات اللحظة المطوطة. وتخرج من الأرض أصابع الوعد الغليظة ضاغطةً على ارتخاء رسغي. تلهجُ باسمِهِ حتى زفيرِ روحِها وتُشهدني على أبدية حبّها، أُرغِمُها على التشهّد مرتين فتغتنم الفرصةَ لتنتزعَ مني وعداً بالذهاب إليه، أنهزمُ وتنتصر، وقبل سقوط جسدي بثانيةٍ واحدة إلى دَرَك التوقعات، أطلَّ وجهُ محمد كبصمةٍ لا تقبلُ التزوير..

إنه هو، وجه الهاتف المستطيل، مكبّراً بعدسة الحقيقة. ابتسامة بخضرة البحيرات تتوسّطُ نهراً أسمر، وعينان بزرقةِ محيطٍ فالتٍ من سيطرة الريح. إنه هو، الروح المرحة التي تلجمُ سرعةَ الموت ليترك بين يديّ الحياةِ رسالةً عاجلةً آجلةً إليه. إنه هو، عصفور فرح غرّيد في ربيع عمرٍ اختصرته الأقدار، وتركتْهُ على غصنِ ذاكرتي ينشدُ النداءَ لأستهدي طريق الـ...

صافَحَني وتمهّل على وجهه تعبيرُ استبشارٍ، ثم انقبض فجأةً ملمحُ حزن، كان عارفاً بموتها:

- لو أخبرَتْني أنكِ على علمٍ بعلاقتنا لكنت أتيتُكِ بنفسي نتشاركُ لواعجَ الفقد..

- كان قاسياً أن تكابدَ وحدك..

- أجل، قاسٍ أن نكابدَ وحدَنا..

عند هذا الحد قبّلت أختي جبيني وغمزت لي بعينها اليمنى قبل أن تغادر نهائياً إلى مملكة النوم. أصرّ محمد أن يوصلَني إلى مكان إقامتي، ثم تمشّينا على ضفة النيل، تحدّثنا عن التاريخ والرواياتِ القديمة والمسلسلات ودندنّا "إيمتى الزمان يسمح يا جميل"، وفي حقيبة يدي غفا ظرفٌ أزرق بدا من غيرِ الملائِمِ حالياً أن ينكأ محتواهُ جراحَ صاحبِ العلاقة!.

١-٢-٢٠٠٧

عِرْضْ

أسرعَتْ بعصبية لإسدال الستائر؛
لم يفهم بعدُ أنَّ وقوفَه في النافذة بسروالٍ قصير (عيـــب)!!

قضيّةٌ خاسرة

أرجوك لا تخبر بناتي..

فالضوء لم يدخل من النافذة ذلك المساء، اسأله.. أمي حلفت ألف يمين قائلة: "اذهبي وأحضري كرات الصوف سننتهي الليلة والشتاء لا يرحم".

لم تكن لدي النيّة في العودة قبل حلول الظلام. فالعتمةُ يا جار تختصرُ اليوم، وتسرع بي إلى الفراش. أنام على جنب واحد، ولا أجد بي قوة لألكزه ليوقف شخيره المتصل. منذ عشرين عاما وصوت الحافلة القديمة المختبئة بين رئتيه يشاطرني الأحلام، وإذا توقفت أقلق عليه، أمرر يدي أمام أنفه لأتأكد من أنه حيّ. تنبعث في الليل رائحة جيوبه الأنفية، ويحزنني كثيراً أنه لا يملك المال لإجراء العملية. صار شخيره حنونا مع الأيام، صار صوتاً أليفاً يدل على رجولةٍ كدح وتعب.

اشتريت الصّوف في عز الصيف، عندما كانت الأسعار رخيصة بجنون شهي. ولم أجد وقتا بارداً لأحيك له كنزةً دافئة. كنتُ أُخرِجُ الكرات الزرقاء من الكيس كل مساء وأعيدُها لأنَّ وبرها يسبّب لي حكّة، فالأكزيما التهمتْ أصابعي، ومعجون الجلي ليسَ ناعماً على اليدين كما يدّعون.

قالت أمي:" صارَ الجوُّ بارداً الآن نباشر الحياكة".

صدّقني يا جار لم يكن في نيتي أبداً أن أعود قبل العتمة. فهو يتعب يا خلق الله يتعب كثيراً في عزِّ البرد. وجهدُ امرأتين في الحياكة يجعلنا نتقاسمه وننتهي بسرعة. الصَّدر لي والظهر لها وذراعٌ لكلٍّ واحدة. إنها أمي نعم.. وهي تجيد الحياكة، ستكون محظوظاً إن استطعتَ رؤيةَ يديها السريعتين وهما تضربان السنانير ببعضها. منذ ستين سنة وهي تحيك الصوف. حاكَتْ الموهير في أيام الرخاء والخيش في الأيام العصيّة، ولم تدعنا نشعر يوماً بالبرد.

أمي تحبُّه أيضاً، لأنني دوما أذكُرُه أمامَها بكلِّ خير، ولا أسمحُ لأحد أن يسيءَ إليه. وماذا تريدُ أمٌ من صهرها سوى أن يكون رحيماً بابنتها؟؟

لم يمنعني يوماً من زيارتها، بل كان يدفعني دفعاً إليها، يشهدُ الله أنّه صاحبُ دين ومعروف، يتوضأ في اليوم خمسَ مرات، صائمٌ قائم لا يدع فرضا. لا يشبه أبدا رجال هذه الأيام، فالديجيتال لم يدخل بيتنا، وهو يؤكد لي بأنه يخاف على بناته من مساخر التلفزيون. عندما تحجّبْتُ طار عقلُه وقال بأنّه أحبّني أكثر. أهدى ابنتي الكبرى حجابا وهي ماتزالُ في الصفّ الخامس، ودعمتُ قرارَه أمامها رغم أنها كانت تبكي في غيابه. قلتُ له بيننا:" يارجل مازالت صغيرة ". قال لي: "صغيرة!! إنّها تفوقُك أنوثة، يجب أن تعتاد من الآن على السّتر والحشمة، وإلا سأضطرُّ لغسلِ عارها بالدّم".

لا لا إلا العار والدّم.. الرّجال تفور دماؤهم للأقاويل يا جار، وعلى الطّرقات يشاهدون يومياً أشكالاً وألوانا. لا يمكنني أن ألومَه لأنّه يهجسُ بالعار. فأنا لم أنس بعد كيف عيّرني بعد الزواج لأنّني قدّمْتُ له القهوة أيام الخطوبة بفستانٍ بلا أكمام. كان يُمسِكُ يدي من تحت المائدة بحضور والدي، ويتابع حديثَهُ المتّزن دون أن يرفّ له جفن. يرفع ثوبي، يقرص فخذي، وأبي على الكرسيِّ المقابل تماماً يقطعُ لهُ صدرَ الدجاجة المحمّرة. بعد سنة من زواجنا كان عليّ أن أرضخ عرفاناً لأنّه تغاضى عن صمتي وتزوّجني. ماذا كان عليّ أن أفعل؟ أنا لا أعرف حتى الآن ما الذي كان عليّ فعله!!

قرصةُ زند، قبلةٌ في الهواء، ذراعُه مخفية وراء الكنبة عابثة بشعري بإصبع واحد، كان هذا منتهى الحب، الحب الذي لم أعرف غيرَه سوى الطاعة والهرولة. لم يخطر في بالي أبداً أنّه كان امتحانَ شرف.

قالت أمّي: "تدخل العروس إلى بيت زوجها يا ابنتي وتخبئ تحت الطرحة كيس الغسيل".

كان هذا الهراءُ كلَّ حياتي..

عشرون عاما وأنا أسمع عن مداعباتٍ تدفع بالدم إلى أذني وتصفُرُ برأسي كطنجرة الضّغط. النساء يثرثرن كثيراً يا جار، ولا يحلو لهنّ الحديث إلا عن هذه الأمور. أكاد أعرف ما يحدث في غرف نومهنَّ جميعاً بالتفصيل؛ لكنني لا أعرف ما الذي يحدث في غرفة نومي. أُغمِضُ عينيَّ على الكون الأبعد وأغيب في العتمة. فكيف سأجيب على سؤاله: "من أين تعلمتِ هذا؟"

أمي قالت: "الرجل يحبُّ زوجته قطةً مغمضة."

كان هذا الهراء كلَّ حياتي يا جار..

لم يكن في بالي أبدا أن أعودَ إلى البيت قبل أن يتصل بي ليلا ويقول: "جهّزي الأولاد سأمر لآخذكم".

إنها العادة. يوم الخميس عند أهلي والجمعة عند أهله. ولا فرق بين أولاد الحلال. هنا بيتي وهناك بيتي، وحيث يكون ذِكْرُه تكون عزوتي، وكيفما أدار ظهره ألقي عليه بُردةَ البيعة.

"سنباشر بالكنزة من اليوم"، قالت أمي، "اذهبي وأحضري الصوف". تركت أولادي وعدتُ إلى البيت.

كانت حارتنا كحالها دوماً مزروعةً بمباخر الألفة. أصل إليها فينشرح صدري، وأدخل الباب مرفوعة الرأس. أتبعُ أثر رائحتي إلى غرفة الكراكيب، فمنذ عشرين سنة والجدران تتعطرُ بي، والعتمة تحفظني فتبعدُ عثراتِها لأخطو. أمدُّ يدي في الدرج الصغير وأُخرج الكيس. عشرون كرةً صوفيةً زرقاء أتُراها تكفي لاحتضان ظهره؟ سنرى!. صنّارتان جديدتان غليظتان لحياكة الضفيرة تكفيان، وأمي عندها صنّارتان قديمتان.

لا يحدث كثيرا أن أسمع صوتاً غريباً في بيتي، أنت اشهد بالحق يا جار، هل سمعت لنا صوتاً طيلة عشرين عاما؟ فكيف إذا لم يكن هناك أحد؟؟ نحن لا ندير الأغاني في بيتنا، لأن رجلَ البيت يخاف على عقول البنات من الوسواس. وإذا دندنّا فسراً وبهمسٍ

خجول. نحن عائلةٌ مستورة، ألحاننا ضحكاتٌ بريئةٌ لثلاث بنات يتكومّنَ في غرفة واحدة، يكتبْنَ فيها الوظائف ويحفظْنَ القرآن والأناشيد. نتجمع حول زوايا وأضلاع مائدة مربعة لنأكل ما فيه النصيب. نطفئ الأنوار باكراً وننام. حتى العصفور الوحيد الذي يتأرجح في سجنه في سقف المطبخ يحترمُ نظامنا وينام. وينفض تغريدَه قبل المنبّه ليوقظنا في الصباح.

لا يحدث في بيتنا أكثر من هذا أبداً ياجار.

أمي تدعو الله دوما ألاّ يغيّر علينا. فنحن سعداء، وما السعادة سوى أن تعيش وتموت دون أن تنغّصَ حياتك فضيحة؟ وكما أحكي لك تماماً، اهتديت إلى الصوف والصّنانير دون أن أشعل نوراً، لا يمكن أن أتعثر في بيت يحفظ بلاطه مداسي ويتجنّبُ أثاثُه الارتطامَ بي. وسمعت صوتاً لم أسمع مثله في حياتي. ربما سمعت عنه لكنّني لم أسمعه من قبل. نحن كعصافير الغابة ياجار، نألفُ زئير الأسود ونمرحُ على ظهورها، لكنَّ رصاصةَ صيادٍ واحدة تفزعنا وتطيرُ بالأمان من قلوبنا. أزّ الصوت كرصاصةٍ في أذني، شهقَتْ، نفَثَتْ، أجفلتِني. وقَفْتُ لكنّها استمرت تدوّي. مشيتُ في ممرّي وتسنّدْتُ بجدراني وتمهلتُ أمام غرفتي ودفعت بابي...

لو رأيتَ ما رأيتُ في بيتك يا جار، كان منسوب الدم ارتفع حتى غطى ركبتيك. أنا ضعيفةٌ يا جار، مجردُ امرأةٍ ضعيفة رأت في بيتها غولاً. غولٌ عارٍ يغطيه الشعر والعرق، تلهث حافلةٌ قديمةٌ في صدره ويعتلي امرأة أخرى.

عندها فقط أغمضَتْ العتمةُ عينها عليّ، ورفعَتْ لي يدي

المُمْسِكة بالصنّارة وأغمدَتْها في ظهر الغول. عَلِقَت الصنّارة المعدنية في ظهره وسال خيطٌ رفيعٌ من الدم، والمرأة التي كانت تضحك منذ قليل بدأت بالصراخ. نسيني أثاث المنزل وتورّطَتْ بغرابة خطواتي بلاطاتُه فوقَعْت. هجم عليّ وانتزعَ حجابي. باغتَتْهُ العتمةُ بيدي وغرسَتْ في عينهِ الصنّارة الأخرى فهي تعرف أنني لا أنكشف على غرباء. أنا لم أصرخ يا جار لأنني لا أحب أن تتلوث حرمة الصمت. أخذا يزمجران كإعلان عن فضيحة. في درجي الأول على يمين المرآة مقصٌّ أعرف مكانه دون معونة العتمة، هاجمني فارتطمَ ذقني بحرف السرير والتفتُّ أصدّه فأربكهُ الظلام وهوى جسده على المقص.

يا خسارة يا جار، لو لم يبق الكيس معلقاً بمعصمي لبقي هذا الصوف أزرقَ اللون ولم يكن أحمرَ من قبل. كنا سنحيك منه كنزةً صوفية ليتدفأ ظهر الغول في هذا البرد، وتتوقفَ الحافلةُ القديمةُ على قارعة رئتيه ويهدأ شخيرُها في الليل.

أتشوّقُ لأعرفَ ما الذي ستقوله أمي الآن...

أرجوك لا تخبر بناتي.

٢-١٢-٢٠٠٤

أخطاء شائعة

أتاها الكثير ممّا لم تكن تحلم بالحصول عليه!

ضحكةُ القلبِ بلا سبب! رقمٌ قياسيٌ في حمل بالاتٍ عديدة دون نفاق!

كلمة "نعم" التي لم تعلن الغريبين زوجاً وزوجة!

ما الذي علمونا إياه بحق الـ..؟!!

نَظَرَتْ من النافذة وفكَّرَتْ باليأس والكآبة وما لم تستخدمه من قدراتِها، وبخمسةٍ وثلاثين عاماً من الغربة الزوجية!!

في الصباح قبضت على نفسها تردِّد بتأفُّف: من لا حظّ له لا يتعب ولا يشقى!!

الأرض الواطية

فوق طاقتي غالباً، وبما يشبه الاعتياد.

رغم أن المقود بين يديّ، تسألني يسرا: سنأخذ طريق البحر أم الدائري الداخلي؟

- كما تريدين..

- لنلتفّ إذن حول المدينة، فالبحر ليلا مرتعٌ للجنيّات وسنثرثر كثيرا ويتبعنا القمر.

ألفّ المقود وآخذ يساري باتجاه الخط السريع. تغيّر يسرا رأيها:

- لا لا لنبق في الداخل، نمرُّ على مطعمٍ نشتري منه وجبةً سريعة، نوفّر الوقت لنشرب القهوة في بيتك.

دون تفكيرٍ أنحرف يميناً، تكاد مقدمة (مرسيدس) فاخرة تصطدم بالدعامة الخلفية لسيارتي، يتفاداني سائقها بأعجوبة. تعنفني يسرا: تريّثي، أنتِ وسيارتك وكل ممتلكاتك لا تكفون لابتياع عينٍ واحدة للشبح.

أحاول أن أبدو دوماً في غاية اللّطف. أطعّم حديثي بمفرداتٍ كانت أمي تقول بأنها "تُخرِجُ الحيةَ من وكرها". عندما يبدأ الكلام

أركّز في العينين. حينها أسيطر بطريقةِ المُحاورِ الإيجابي. أستعمل البلسم الشافي من المفردات: معك حق، هذا حسن جداً، أكيد، دون أدنى شك، لا يهمّك، سيكون كل شيء كما تشتهي وأكثر...

تحبُّ صديقاتي دفن أسرارهنَّ في قلبي. فأنا لا أجرؤ على القول بأن هذا الأمر لا يعنيني، وأنَّ "عزيز" الذي وقف ليلاً تحت نافذة "مايسة" شابٌ استعراضي، وأنَّ شجار إيمان المتكرر مع أمِّها قلّةُ احترام، وأنَّ قبلة "وليد" لـ "رولا" في المكتب ليس فيها شيء من الحب، وأنّ إيميلات "ريهام" اللّحوحة لـ "خالد" مجرّدُ مستمسكٍ ستتدمُ عليه. أهزُّ رأسي وأشهَقُ مردّدةً كلماتِ الحياد المشجّعة على الاسترسال: آها، حقاً، واااااو، إنَّ هذا رائع، بشرفك!!، هذا مؤثر. أو أتأسّى وأرسم على وجهي حزناً مع أنّةٍ وآهة، وتندُّ عنّي غالباً تربيتَةٌ على الكتف، حتى لأجدَ الصديقةَ بين ذراعيّ تذرف بكاءً مريراً يستدعي أن أتجاوب معه بالدموع.

يسرا وحدها اكتشفت أنّني أكاد أنهار. وطالبتني مراراً بالتّوقُّفِ عن جلد نفسي. سألتني مباشرةً:

– أنتِ ماذا تريدين طريق البحر أم الدائري الداخلي؟؟

أنا مقتنعةٌ تماماً بأنَّ طريقَ البحر أجمل، ولكن ما الضّرر في أن نتعشّى قبل أن نذهب إلى البيت؟!

لا أعرف، من الأسهل أن أميلَ مع ميلِ الريح. وفي النّهاية طالما أنّنا معاً فما المانع من أن نأخذ أيَّ طريقٍ يؤدّي إلى وجهتنا؟؟

يحدث هذا كثيراً، خاصةً عندما يتعلّقُ الأمر بالاختيار بين وجهيّ الحقيقة. سرّه كثيراً ذلك الشعور بالامتنان الذي أبديتُهُ عندما قدَّم لي وردةً حمراء. ويبدو أنّني بالغْت في ردِّ فعلي: الله كم أنت رومانسي، هذا تماماً ما كنت أنتظرُهُ منكَ الليلة!!

في عيدِ ميلادي السابع والعشرين، لم أكن أبداً في مزاج جيد. كنْتُ أحلم قبل لحظاتٍ من قدومِهِ بشيءٍ مختلف يُشعرني أنَّ الزّمن يخبّئ لي بين رتابة طياته الكثير من المفاجآت. وفي أوج فوراني التَّخيُّلي، دهنْتُ يديَّ بالمرطِّب وبَرَدْتُ أظافري وطليْتُها بالأحمر استعداداً لارتداء خاتم بفصٍّ برّاق. عطّرتُ شعري لكي يتنسّمَ عبيري حين يلبسني قلادةً ثمينة. تمرّنت أمام المرآة لكي أحدّ من دهشتي حين يطلب مني أن أغمض عينيّ وأفتحهما على علبةٍ مخملية تستلقي فيها ساعةٌ مذهَّبة، يقول لي إنَّه اختارها لأتذكره كلَّ الوقت.

كلُّ ما استطعتُ فعلَهُ ابتسامةٌ واسعة وتأثّرٌ بليغ. أثقلْتُهُ بعباراتِ الشّكر والمديح حتى رأيته يرتفعُ طائراً سعيداً فخوراً باختياره التقليدي الموفّق لوردةٍ حمراءَ تافهة. بقيتْ الوردة تمدُّ لسانَها لي شهراً كاملاً، بعد أن استحالتْ سوداء غامقة، وبدأت تفوح من ماء إنائها رائحةٌ عفنة.

- هيّا عليكِ أن تختاري، طريق البحر أم الدائري الداخلي؟!

أردت أن أبكي، لكنني- كالمعتاد- أختنق كلّما راودني إحساسٌ حقيقي. فأنا لا أعرف كيف أختار. كانت أمي تقول: "الأرض

الواطية تشرب ماءها وماء غيرها". تشربت الآخرين كإسفنجة البار، وحكمتُ على نفسي بالعطش، يتهافتون كالذباب، وأخفي رغبتي بنشّهم مقاومَةً بوعيٍ كاملٍ شهوتي للصراخ.

– قهوة سادة، وأنتِ؟

– مثلُكَ..

لم أكن أحب القهوة السادة أبداً. قهوتي مغليةٌ بسكرٍ خفيف. أيوجد أسهل من هذا الوصف؟! قهوة مغلية دون وجه مع القليل من السكر، بضع ذرّاتٍ برأس الملعقة تكفي. تجرّعْتُ مرارة القهوة، أُنصتُ لطلبه لي بالزواج. تصرفْتُ حيال ذلك بدقّة المَشَاهِد المنسوخة، وقمعت رغبتي في النهوض والتقيؤ على أزهارِ ربطة عنقه.

احمرارُ الحِنْق من طلبه السريع وعرقُ الغثيان، حوّلْتُهُما إلى دلالتي خجلٍ وارتباك. أرخيْتُ بصري كما يتوجَّبُ عليَّ، وأنا أقاوم النظر في وجهه، تعمّدْتُ أن يبدو صمتي علامة رضى، وضغطت بين أسناني على كلمة "لا".

بالعبارات الجاهزة وحسب الأصول، كنتُ أستقبله بالفرح وأُشعِرُهُ بأنّ كيلو التفاح الذي دخل عليّ به يساوي عندي الدنيا وما فيها. أصفّ التفاحات بعناية في الثلاجة بجانب تفاحات اليوم السابق حتى امتلأ الدرج بتفاح مجعّد. وبغضب شديد، قضيتُ صباحي بعد أسبوع أتشفى بتقطيعها وحشرها في آلة العصير. تأكسد السائل فيَّ الزّجاجة و تطاير البرغشُ على سطحه فاستعملتُهُ خلاً للسلطة. وبقيتُ ألهفُ فرحةً كلّما حمل لي كيلو

تفاح. ولسنواتٍ طويلة لم أجرؤ على قولِ ما كان يتخثَّر في داخلي: يا غبيّ ألم تلاحظ أنني لا أحبُّ التفّاح؟!!

الطرق الداخلية المختصرة ستصل بي سريعاً وتُغلق عليّ المدينة. وفيها يهيّئ الناس أغلالهم الصّارمة. يوصَدُ باب البيت، ونعود إلى إطاراتنا وحبالنا وقواعدنا سالمين، مجرد صور ودمى وتماثيل.

سيرنُّ الآن الهاتفُ الخلوي ويسألني: أين أنتِ؟ وسأجيب: أنا هنا حبيبي مع يسرا، هي بجانبي الآن وتُسلّم عليكَ، ستبتسم يسرا وأتابع: إنّها تسألني أيَّ طريق نسلكُ طريق البحر أم الدائري الداخلي، وسأكذب: أنا اخترتُ الدائري الداخلي لأصل بسرعة إليك وأحضّر لك عشاءً منزلياً حميماً ثم ننقرُ كدجاجتين ما تبقّى من مكسّرات الأمس مع أحداثِ حلقة جديدة من مسلسل السهرة، وحين تفرغُ من تعليقاتك على عيوب الفكر العربي تكون الصّحون قد فرغت أيضاً وننتقل إلى غرفتنا لننام كما نفعل كل ليلة. سيعجبك الكلام وتقول لي: أنا بانتظارك.

هذا ما جرى فعلاً. يسرا حدّقت مصعوقةً في وجهي وهي تراني أنحرفُ إلى جهة اليسار وأنطلق في طريق البحر.

صفّقت يسرا وضحكنا بجنون.

٦-١٠-٢٠٠٤

قوالب

بزيٍّ موحّد، ردّدوا النشيد بصوتٍ واحد، ثم زحفوا معاً .. رنَّ الجرسُ فاصطفّوا رتلاً واحداً وساروا إلى مهجع كبير.

صاحب القالب المكسور أُعيدَ منفرداً إلى زنزانته.

المستثنى بالقراءة

تفاحةٌ عطنةٌ واحدة كافية لفسادِ الصّندوق.

يمكنك دوماً أن تسحب هذه القاعدة على التلاميذ، والأبناء، والموظفين، وأجهزة الأمن. على كلِّ المجموعات التي تخطرُ ببالكَ. الناس مولعون بالتعميم، ولا عزاء للاستثناءات عندما لا تشكّلُ نسبةً ملحوظة. حتى أن الاستثناء عندما يوجد يصبح نشازاً يُشكّكُ به. المعلّمة الشّديدة الجادّة في عملها كنّا نقول بأنها عانسٌ معقّدة، وسائق التاكسي الذي يغضُّ بصره عن الرّكاب لابدّ وأنّه يسترق النظرَ من مرآة مخفيّة، والشاب المتزن الذي يعامل الفتيات بأخوةٍ شاذ، وممثلة الأدوار الأولى تربطُها دون شكٍّ علاقةٌ بصاحب شركة الإنتاج، والشركة النّظيفة حتماً ستارٌ لنشاطٍ مشبوه!!

في مجتمع ينخره الفساد، تتضاءل النّوايا الحسنة، وتصبح التُّهَمُ الجاهزة أسهلَ بكثير من إنصافِ الاستثناءات والاعترافِ بوجودها. ولأنني من هذا المجتمع، ومن ثديه رضعْتُ مبادئي، فأنا وريثة أمراضه، مصابةٌ بمخاوفه، وحاملةٌ وناقلة لجيناتِه المشوّهة. ولأنَّ حاملَ العيب ناكرُه، لم أصدّق في نفسي تلك الخصال، وسرْتُ في حياتي أحكي المثاليّات كأنّني (غير شكل)، حتى وقعْتُ في شرّي وذقْتُ مرارةَ الكأس التي سقيتُها للآخرين.

عندما صدر ديواني الأول، بمعونة ناشر كبير، استنكرْتُ باشمئزاز الأقاويل التي شاعت بأنَّه الكاتب الفعليّ لأشعار الكتاب. حقيقة كنت بحاجة لصدمة كبيرة تنزل على رأسي كثقل حديدي لأصحو. لففتُ ساقاً على ساق في مبنى إحدى الصّحف ورحت أشرح للصحفيِّ في حوارٍ مطوّل مأساة الكاتبات في عالمنا العربي، وأنتقدُ بكلام منمّق أمراض المجتمع الذكوري. وبانفعال؛ ألقيْتُ المسؤولية كاملةً على أجهزة الإعلام والصحافة. لم أستثن أحداً:

"نحن هكذا، سجّل عندَك، نقول (الجمهور عايز كده) ونتحفه بالترّهات. نقول الجمهور لا يقرأ، ونتقاعس عن الكتابة. نقول كتابة النساء متشابهة، ونحكُمُ على الجميع مسبقاً بالإعدام تصنيفاً. إذا اكتشفنا كاتبةً مزيفة أصبحَتْ نموذجاً سائداً وأعدَدْنا محرقة لتجارب الأخريات. أليس هذا تخلّفاً؟!!".

أحتفظُ في حقيبتي بقطع نقدية من فئة الخمس والعشرين ليرة لشرطة المرور، هؤلاء الجُناة الذين لا يشبعون.

- يا أخي كانت الإشارة خضراء أقسمُ لكَ، بعينيَّ هاتين!!

- قَطَعتِها حمراء وحياة جمالِك.

تَبَلٍّ ووقاحة. هكذا هم دوماً:

- يا أخي انظر الكلُّ يقفُ مخالفاً، لم أغب سوى عشر دقائق!!

- لو سامحْتُ كلَّ سيارة على مخالفة عشر دقائق لعمَّت الفوضى في الطرقات.

أدسّ في يده المال، يتلفَّتُ حوله، يمشي إلى مقدمة السيارة يضربُها بكفِّه، يمرِّرُ لي من النافذة شهادةَ السّوْق، ويقول لي:

- لا تعيدينها.
ألفُّ المقود بعصبية وأشحط الزِّفت بالعجلات.
تبّاً لكم.

علّمني صديق حيلةً لتفادي المخالفات، "احتفظي بورقة مخالفةٍ قديمة وكلّما ركنْتِ في مكان ضعيها تحت ماسحة الزُّجاج. سيأتي الشرطي ويعتقد أنَّ زميلاً له خالفك، ولأنَّهم لا يضاربون على بعضهم سيمضي".

نجحَتْ حيلتي مراتٍ عديدة. وفي كلّ مرة كنت أشكره بسرّي ممتنَّةً للنّصيحة القيّمة.

مطار مدينتي واجهة سيّئة جداً للبلد، ولا بدَّ أن تبدأ الحكايات العجيبة عن المدينة ما أن تطأ قدمك أرض المطار. على باب "المغادرون" ركنْتُ سيارتي ونزلت أُعيِّنُ صديقةً زائرة حاولْتُ طيلة فترةِ إقامتها أن أريها كلَّ شيءٍ جميلٍ عن بلدي. فأنا دليلةٌ ممتازة حين يتعلّقُ الأمر بالمطاعم والمنتزهاتٍ والمكتبات. تجنّبْتُ الشوارع المتّسخة بالأتربة والحفريات والمشاريع المؤجلة بالبطء والقرارات. أعرفُ جيداً مكامن الإبهار، وأعرف أكثر كيف أتحايل على المواقف المخزية، لأحوّل السلبيات إلى إيجابيات.

انحشرْتُ في ازدحام الموسم الصيفي على باب "المغادرون". كان عليَّ أن أركن السيّارة للحظات ريثما تُنزل حقائبها، أقبّلُها مودّعةً وأمضي بتنهيدة (الحمد لله) مرّت الزيارة على خير وسلامة؛ حين

تقدم باتجاهنا. توضأتُ بلبنٍ مغلي، ورسمْتُ أوسع ابتسامةٍ أنثوية على وجهي:

- دخيلك دقائق فقط وأمضي..

- ممنوع الوقوف، اركني السيارة في المرآب.

كَكلِّ رجال شرطة المرور في بلدي، عابس الوجه، الشمس كحتَتْ بشرتَه ولون ثيابه، يتحدَّثُ بلهجةٍ باردة آمرة. تخال للحظةٍ أنَّ النقاش معه مستحيل، وأنَّ القانون سيأخذ مجراه. همسْتُ بين أسناني وغمزْتُ له:

- لا تفشلني أمام صديقتي، دقائق فقط أودعها وأشوف خاطرك.

لم يبدُ عليه التأثُّر:

- أبعدي السيارة، ممنوع الوقوف.

مددْتُ يدي في حقيبتي وأخرجْتُ مالاً حاولْتُ دسَّه في يده، انتفض من لسعة الحركة:

- أنا لسْتُ من هذا النوع!!

- !!!

لماذا لا نعترف أننا منخورون حتى النُّخاع، فيُغضبنا الاستثناء الجيد ويصبح بلحظة شاذّاً عما اعتدناه. ابتلعْتُ ريقي بصعوبة، يجبُ أن يحدث شيءٌ ما يعيد الأمور إلى نصابها الجميل. لا يمكن لموقفٍ صحيح في منظومَةٍ خاطئة أن يفسد جهودي في إعطاء صديقتي السائحة فكرةً حسنة عن بلدي!

- طيّب، سأذهب إلى المرآب فقط دعنا ننزل الحقائب.

بقي يدور حول السيارة بعينين فضوليتين خاليتين من الوقاحة. مجرد فضول أثارته سيارتي المفروشة بالكتب، مئةُ كتابٍ حصّتي من دار النّشر عن الطبعة الأولى. فردّتُها على المقدمة الأمامية تحت الزجاج فوق المقود وعلى المقعد الخلفي. نوع من الإطالة لسعادةٍ مؤقّتة!!

بقيَتْ صديقتي تنتظر بجوار حقائبها، وركبْتُ السيارة لأُبعِدَها عن رصيف "المغادرون" حينَ اقترب من النافذة:

- ما هذا؟

- كتب

- كتب شو؟

- شعر، أنا شاعرة.

لم يبد عليه أنه ينوي التحرُّك لأمضي، مدّ يده:

- أنا أحب الكتب، أريد كتاباً..

من يدري كيف تتقلب المواقف لصالح بلد كامل من أجل كتاب.

مدَدْتُ يدي بكتاب، تصفّحَهُ وسألني:

- أنتِ مؤلفة هذا الكتاب؟

- نعم.

تصفَّحهُ ثانيةً بسرعةٍ وأدار رأسه بعيداً قائلاً:

- ساعديها في نقل الأغراض ولا تتأخّري، سأراقب السيارة ريثما تعودين.

كانت لحظة وداع سعيدة! فمن جهة ليس هناك استثناء بالمعنى الدقيق للكلمة، ومن جهةٍ أخرى بلدُنا بخير طالما يصلُحُ الكتاب ليكون رشوةً لشرطيّ مرور.

٢٠٠٤/١١/٢٢

تجربة

خفت قليلاً من أن تكون الشراهة فطرة الذكور، حين سُمح لي بإدخال ابنيَّ إلى حمام سباحة خاص بالنساء لأنّ عمريهما أقلّ من سبع سنوات.

ركض الصغيران بين السيقان العارية، سبحا بين الأثداء الطافية، لعبا ببراءة تحت الشمس. وفي المساء سألهما والدهما بخبثٍ عما رأياه في هذه الرحلة المثيرة، فأجاباه:

- كان في كتير "بوب كورن" عالأرض!!

سمٌ بياني

الخطُ الأخضرُ مستقيمٌ... والصافرةُ موصولة... والجسدُ الهامدُ يقفز تحت يأس الصَّدمة...

لا تصرُخي في الجسد الهامد، دعيْهِ مستغرقاً في سبات، معلّقاً بين ضوءٍ أخضر كان من هنيهةٍ يومضُ بانكسارات نبض الحياة، وصفيرٍ كان متقطعاً يكابد التلاشي والغياب.

لا تفقدي الصوتَ في العويل، فأُذُنا العالم الآخر من طين...

إنّها لا تسمعُ سوى لحنَ النداء هنا ولا تجيب... وتبدو ابتسامتُها في شرود... سابحةً في هلامِ رحمٍ جديد... ستندفعُ منه إلى أعلى... حيث يتساقطُ النّور من فوق... وترتج بوابة الحياة على عتمتها.

❖ ❖ ❖

- هل سأشعر بالألم دكتور؟

- من يومين إلى أربعة أيام على أبعد تقدير، سنتغلب عليه بالمسكنات والكمّادات إلى حين إزالة أنبوب تصريف الدم والسوائل.

لم تُثْنِها الخطورة عن عزمها، هي الخوّافة من إبرة التّطريز،

من سكين المطبخ، من قطرة دم الرّعاف. لم يزعزع قرارها سماع مخطط العملية بالتّفصيل؛ تخدير عام، استئصال كمية من الأنسجة، الشقُّ الجراحيّ المفتاحيّ، وأنبوب التفجير الذي سيغرس في لحمها الطريّ.

تاقت لهذه اللحظة منذ بلوغها العاشرة وانشداد هضبتين في الصدر، انحنى لهما الخفر الأنثوي وتكتّفَتْ الذراعان طيلة الوقت. وبدأتْ الجينات تفعل فعلها في رسم الهيئة كاملة.

- كعمّتك تماما.

كرهت عمّتَها التي لم تورّثْها بياض بشرتها ولا لون عينيها الداكن أو فتحتهما اللوزيّة. فقط ذلك الصدرُ الناهضُ فوق جسدٍ ضئيل، النافرُ في العيون، المتقدمُ كتشكيلٍ خاطئٍ جاثمٍ فوق أنفاس طفلة.

كلُّ شيء أصبح رهناً بقانون الصدر الكبير، الكبير جداً، كوسادتين منسيّتين في ثياب بهلوان. دون أدنى شبه برفيقات الصفّ المتباهيات برمّان قمصانهنَّ الصيفيّة، وبرتقالات فساتين الربيع، وكمّثرى الشتاء المدّثرة بشالات الصوف، وعناقيد الخريف المعقودة تحت أقمشة خفيفة. كانت وحدها تغرق بأثوابٍ فضفاضة، وياقاتٍ ضيقة، يُطلُّ منها خطٌّ ظلٍّ غائرٍ بين كتلتيٍّ لحم، تخفيه تحت وشاح ينسدل حول الرّقبة.

أخذت تبدو أكبر سنّاً من أترابها. فلم يعد يليق بها الرَّكض في الملاعب، خجلاً من تدلّي البالونين الممتلئين وتأرجُحِهما إلى الأمام بشكلٍ لافت. ولا توسُّط الرَّقص في احتفالاتِ النجاح، تلتصق

بكرسيِّها تتأمَّل الأخريات يسابقْنَ الزّمن هرباً من الطفولة، ويتثنَّيْنَ مشدوداتِ الظّهور، ناهضاتٍ بكراتٍ ثلجية قاسية بحجمِ قبضة الكف. تكابر في رسم ضحكة انسجام، وإيقاع صفقة مجاملة.

" لا تهزّي كبوش التوته، ما بحبك لو بتموتي.."[1]

بهذه الأغنية الصّفيقة عاكسها أحد الشبانِ المداومين على سنْدِ جدار مدرسة الإناث، في الثانية تماماً بعد الظُّهر. غرس عينيه في صدرها مباشرةً وزرع فيه ابتسامةً فاقعة الوقاحة. غاص رأسُها بين كتفيها، وبعدها... لم تفلح بالنوم على جنْب يريحها أبداً. الاستلقاءُ على الظَّهر يوزِّع الثِّقل خانقاً رئتيها، وعلى الجانب الأيسر يختلّ توازن زورق النوم مائلاً حتى يُغرقَ قلبَها ويعتصرَ سرعةَ دقَّاته. وعلى الجانب الأيمن يدبُّ الخدر في ذراعها كمجداف خشبي متآكل، والانبطاح على البطن يُزهق روح الثَّديَيْن اللّدنين ويجعّدُ جلدهما ويَفْتِقه عن وجع واحمرار، فتتخبَّط أولَ النعاسِ كسابحٍ عكس التيار، تنقلب وتتقلَّب...

الخطُّ الأخضر سَئِمَ تعرّجات الحياة
فتوتَّرَ منكسراً كعشبِ اللوحة
ولهدأة الأنفاس
امتدَّ كأفق مستقيم
مُعلِنا احتجاجه بصافرةٍ موصولة
لا تصرخي

---

١ أغنية شهيرة للموسيقار ملحم بركات

الجسد النائمُ في خدرٍ
لن توقظَهُ الصَّدمةُ
والقلب معلّقٌ بنهايةِ خطٍّ أخضر
يتدلّى في هلام رحمٍ جديد
فتحته إلى أعلى

❖ ❖ ❖

- احمدي الله، محسودةٌ أنتِ، يحشونه هذه الأيام بشرائح السيليكون.

تبتسم للكلام الرّطب المهدِّئ، ولا تفصح عن انكسارٍ حادّ في الروح. وحده البرنامج التلفزيوني الذي يفتح سيراً محظورةً، ارتفع بمعنوياتها إلى تلال نشوة سرّية، بالإمكان تصحيح كلّ شيء. التقطَتْ طرف الخيط وتبعَتْ الأمل.

تباحثَتْ والمرآة، وحمّالات الصّدر الضّخمة -التي تتبرَّع بها عمَّتُها كتكفيرٍ عن هبة الوراثة- وأعزّ صديقة لها، تلك التي تحلم بتكبيرِ صدرها الضّامر الغائر بين عظام القفص:

- ما أن نبلغ الثامنة عشر حتى نذهب إلى جرّاحٍ واحد، نقول له: اجرف من هنا وأضف إلى هنا...

تضحكان بجدّية، وتجلسان أمام الكومبيوتر تتصفحان بفضول مواقع التّجميل على الانترنت. تستعرضان صوراً كثيرة لملكات الجمال والمطربات وعارضات الأزياء. يسير الجسد مختالاً على "أرينا"[1] اليقظة، ما الذي ينقصنا لنصبح ملكات، المال... المال...؟!!

---

١ المسرح المستطيل الذي يحيط به الجمهور والمخصص لعروض الأزياء

- يا ابنةَ بطني من أين لنا بالمال والدولارات؟

- أنا وحيدتكم وأحتاج هذا المال لئلا أقضي بقية أيامي معقّدة وحزينة ومنطوية.

- لا شي أغلى من سعادتك يا ابنتي ولكن من أين؟

كانت المسألة بالنسبة لها مسألةَ حياةٍ أو موت. أخذَتْ تصحو وتنام على فكرةٍ واحدة، تحقيقها يحيل الحياة إلى جنّة نعيم، وإجهاضها يعني أن تغلق الدائرة على الروح وتبقى أسيرة جسدٍ لا تحبُّه وترتدي طيلة عمرها هيئة عمتها.

- لا بد أنني سخرت في سرّي كثيراً من نهديها، فابتُليتُ بهما.

- قارني، هذه الصورة قبل وهذه بعد...

تتنهدان بغيظ، لا بدَّ من مخرج...

في العمر المحدَّد، وعلى وعدٍ من أمها بأن تجد مفتاحاً للموضوع المقفل، ازدادت حدّة الرّغبة. لم تعد لعبة المماطلة تجدي نفعاً، والأمر تعدّى كونه مجردَ حل للتخلّص من آلام الرَّقبة والظَّهر وتقوُّس العظام ومشاكل التنفُّس والإحراجات الاجتماعية...

- مسألة حياة أو موت؟

لا بل أكثر. أصبحت موتاً من أجل شكل محدَّدٍ للحياة، ومستشارة عيادة الجراحة أكَّدَتْ أن القصَّة أصبحت سهلةً كقلع الضّرس.

- ولكن التكاليف والضَّمانات؟؟

- عملية تصغير الصدر هي الجراحة الوحيدة التي تجرى تحت التخدير العام، ناهيك عن فترة نقاهة قد تمتدُّ من سبعة إلى عشرة أيام، خلالها سيتغير شكلهما إلى مربّعين، ثم ما يلبثان أن يعودا للامتلاء، ليأخذا شكلهما المثير الذي ترغبين...

- والتّكاليف؟؟؟

- تستغرق العملية ثلاثَ ساعاتٍ أو أقل...

- فقط لو تعطيني فكرةً عن التكاليف..؟!

- للعلم أنتِ أصغر بنت ستخضع لهذه العملية عندنا، الأخريات في الأربعينيات والخمسينيات. نجماتٌ آفلات، أمّهات، أرامل ومطلّقات...

لم تعد تحتمل نذالة المرآة.

- What you see is what you get [1]

هكذا بدأتْ صديقتها التي تعاني نقيضَ الحالةِ وشبيهَهَا تغنّي على الهاتف. يبدو أنّها تنسحبُ الآن من الحلم المشترك...

- هكذا قلتُ له ويبدو أنّني أعجبتُه أكثر.

- ووعْدُكِ لي بأن نكون على سريرين متجاورين؟

- كبّري عقلك... الثقةُ بالنّفس تجعلُكِ أجمل في عيون الآخرين. إنّكِ تماماً ما تقنعينَهُم بأنّكِ عليه...

- وهل أقنعْتِه بأنّكِ مكتملةُ الأنوثة؟!

- لن تصدّقي، أصبح يدافعُ عن شكلي، قال بأنّني سأبقى دوماً كطفلةٍ تخبّئ في قميصها ليمونتين.

---

١ أغنية للمغنية الأميركية بريتني سبيرز تعلقت بها المراهقات منذ عام ٢٠٠١

لا بد من خوض التجربة وحيدة إذن.

بادرتْها المرآة بصورة ضرعين على وشك الانفجار. لن تتراجع أبداً عن قرارها، فأحدٌ لم يتقرّب منها لتعلّمَهُ التغاضي عن رسمها الكاريكاتيري المبالغ في الانتفاخ، وتغنّي له، What you see is what you get. كذلك لم يبادرْ أحدٌ لثنيها عن نيتّها بحزْمٍ وبحججٍ مُقْنِعة.

- هل الأمر بهذا السوء؟

- يا رجل الآن كلُّ البنات بعمرها يخضعْنَ لعملياتِ تجميل، ونحن ليس لدينا إلا بنتٌ واحدة.

- وتريدُ تغيير خلقة الله!!

- العلم والطب هبةُ الله لخدمة الإنسان وجعل حياته أفضل.

- وإذا ماتَتْ؟؟

- فال الله ولا فالك يا رجل...

- والمصاريف؟؟

- لا عليك سأبيع صيغتي، وأشترك بجمعيّةٍ مع صديقاتي أقبضُها أولاً.

كانت تعلم أنَّ أمَّها لن تخذلها. الأم، يا الله كم الحياة مشوهة لولا الأمَّهات...

❖ ❖ ❖

وقّعوا على صكّ المسؤولية
فأغمضَت البنتُ على حلمٍ جميل
ألا يكفي أنَّها نعسَتْ على الخدر
قبل العدِّ الآخير؟

والجرّاح انكفأ يثبّتُ الحلمتين
يُلصِقُ شريطاً فوق خياطةِ شقٍّ مفتاحيّ
ووجهُهَا بهدوءٍ ملائكيٍ
يبتسم في شرود
منصتاً
لصفيرٍ موصول...
البنتُ نامتْ
أصبحتْ جميلةً ونامتْ..

٢٠٠٣-١١-٢١

أنستيزيا

- أول أمس لعبتُ كرة القدم مع رامي وماري وحمادة وأكلنا بوظة ألاسكا من دكانة أبو جورج. أمس داهمَني المخاض في الخامسة فجراً ورزقْتُ بتوأم. هذا الصباح قدمتُ استقالتي بعد عشرين سنة خدمة في وزارة الأشغال. وللتوّ حددوا لي موعداً لاستئصال ورم خبيثٍ من صدري، واحد.. اثن.. ن.. ثلا.. هـ

- دكتور، المريضة جاهزة.

سقيفةُ بني كركب

لا يمكن لآدمي أن يتخيَّلَ فوضى تعيش وتنمو في مكان مهجور.

كان عليّ أن أخوض في ركام الذّكريات لأصل إلى الصُّور، بأي ثمن، حتى وإن كلّفني تنشقَ غبار النسيان، ورطوبة الهجر، ووهرة الموت، وأعمار ثلاثة أجيال تخلَّصَتْ من ماضيها.

صمتُ مقبرة، وتوهّمْتُ أن أصوات ضحكات تتبعث من وراء خزّان ينفخ الصدى بعد أن خنقه الصّدأ. لم أتردّد، لأن العثور على الصُّور ضرورةٌ ملحة. حقي الوحيد الذي طالبْتُ به بعد أن تنازلْتُ عن كلِّ شيء.

- البيتُ لي.

قالها أحمد بحزم ولؤم. أميمة ونبال التزمتا الصَّمت. سبق وأن سحبتا بالصّراخ والشّجار خزائن خشب الزّان وأواني الخزف الصينيّة والتُّحف والسجّاد والثُّريّات والكريستالات مستأثرتين بالتّركة المنقولة.

كنتُ على علم بما يحضّر في المجالس الأُسَرية المكثّفة، الأشبه بجلسات تحضير الأرواح. وسطاء جريئون، وفناجين تدور فيها همهماتُ الميّتين، وحلقة بحثٍ للنّبش تحت كلِّ بلاطةٍ محتملة لإيواء كنز قديم.

دُعيت مرةً فلم يَسمح لي حزني بالذهاب، وأَغلقَ عليَّ وجعي باب الفضول. آثرتُ البقاء خارجاً حتى النّهاية وانتظرتُ القسمة الأخيرة:

- أنت المغترب الميسور بيننا.

- اختر شيئاً ولن نختلـ...

عضّتْ أميمة شفتها السُّفلى على عبارة أحمد، فابتلعها.

- عدا مصوغات ماما، وَهَبَتها لي على حياة عينها..

- والبيتُ لي.

قالها أحمد بحزمٍ ولؤم.

لم يكن ينقص غربتي سوى صورٌ كثيرة أعلّقها على الجدران لتخفِّفَ من أحمال الرأس. رأسٌ بليتْ صفحاتُه واهترأ غلاف الذاكرة. أرتمي، حين يكدّرني صفاء الغربة الراكد، فيما تركته ورائي من فوضى، الوطن، البيت، الصور، وأبدأ السِّباحة معاكساً موجا قذفني بعيداً.

الصُّور... محافلُ اللّحظات، دمعةٌ تموضعت أبداً على خدِّ طفل. ضحكةُ أمي ولا ينقصها الرّنين لتحيا. شمعةٌ مشتعلةٌ بين النَّفَس والانطفاء. كتفٌ يتّكئ على شجرة، لم يعد لهما وجودٌ على رصيف اليوم. الصُّور... الشّاهد الوحيد بعد موت الشهود على أنَّ نهراً اسمه بردى كان يبسط كفَّه المثقوب في مدينتنا، والأشجارُ تحفّ بالجهات، والخيولُ ترفع رجال العائلة على صهواتها حتى حدود الشمس، لذا تراهم في كل الصور عقدوا حواجبهم والسيوف

ترتكن بأمانٍ في أحزمتهم. الصُّور... تشهدُ أنَّ أرضاً كانت تتَّسع لعَدْوِ الخيل - لم يكن الاسمنت قد استعمرها بعد- امتدادها العمرانيُّ أفقيٌّ تكفي الستائر حُجُبَاً لتعايُش الأُسَر في بيت واحد، وكان المسيرُ إلى الغوطة أمراً ممتعاً قبلَ أن تُدخِلَ السياراتُ والمطاعم إلى مدينتنا فضيحةَ المقامات.

- خذ الصورَ كلَّها.

بكرم وسخاء أعطاني أحمد شيئاً لا يملكه، قيَّمَها مجردَ أوراقٍ لا تصرفها البنوك.

لم أتوقّع وأنا في علبتي الغريبة، أقضي حكماً بالعمل الشاق والعزلة، أن الوصولَ إلى الصُّور يحتاج حفراً وتنقيباً في سقيفةٍ تغصُّ بالغبار والكراكيب، وتتراكم فيها أكوام المهملات. كانت ذاكرة أصابعي تتحسَّسُ أغلفة الألبومات المخملية بزواياها وشراشيبها المذهَّبة. وذاكرةُ ثرثرتي تُقحِمُ في كلِّ حديث مُتَاح حكاياتِ طفولةٍ وتفاصيلَ أمكنة.

صديقٌ كان يسافر إلى البلاد سنوياً سألني وعلى وجهه علامة استخفاف وعجب:

- عن أي دمشق تتحدث؟!!

ليس في رأسي سوى دمشق واحدة. رغم الانقطاع الحادّ بمشرط ثلاثين سنة غربة، تخلَّلَتْها زياراتٌ متفرِّقة تلبيةً لواجب العزاء.

- لم أقصد، أنت تكبرني بسنتين فقط، وتتحدث عن دمشق كأنك من مواليد العشرينيات!!

لا أعرف بم أجيب!! على أرضها وفي شوارعها أحسُّ الغربة تنفض أحاسيسي أيضاً، كأنَّني لم أَعُدْ. كأنَّني وُلِدْتُ على وعدِ الغربة، وشاء القدر أن يكون التيه حليفي في الجهات. في السقيفة يكفُّ الوعدُ يدَه عن جبهتي، وتستكين صنجات الحنين. أحطُّ رحال السَّفر بين الأزمنة وأعود إلى ماضٍ يسبق مولدي بسنوات، فأبكي وأنتمي وأتذكر.

الطبيب النفسي الذي زُرْتُه، شطح كثيراً في شرح مصدر التَّداعيات المتراكمة التي أثرثرها وأنا منومٌ مغناطيسياً مقابل مئةٍ وعشرين دولاراً للجلسة الواحدة. وبسعرٍ أقلّ بكثير، بحث الوسيط الروحيّ لصديقتي البرازيلية "أنيتا" مطوَّلاً عن روح تتقمص جسدي، سبق وعاشت في حقبة التراموای والكتّاب وحمّامات السوق.

- يا أخي أنت ولدت في مستشفى الطلياني، وكنّا نمتلك حينها سيارة وتلفزيون وفرن غاز، فمن أين أتيت بحكاية انزلاقك من يد الدّاية إلى الحصير؟!!

هكذا علّقت أختي الكبرى أميمة وهي تلعن الساعة التي أعود فيها إلى دمشق، فأسئلتي بدأت تثير الشُّبهات، وسلامتي العقليّة تحوَّلت من نكتةٍ مضحكة إلى همساتِ شكٍّ أكيد. أما نبال فنصحتني بالزواج، قائلة: ستملأ المرأة وأولادها حياتك وتنعم بالنسيان.

لم يستطع الطبيب تأكيد مروري بحالة مرضيّة، بينما صمَّمَ العرّاف على رأيه أن رسالةً عبري تتخبّطُ بحثاً عن شاطئ. وفضّلْتُ أن أصدّق انغماس روحٍ هائمة بروحي، على أن أذهب ضحية نصيحةٍ بالزّواج تقضي على حريّتي وتحرمني الهيامَ السّلِس بين الأزمنة.

استضفْتُها برحابةٍ وانشراح، وأرضيتُها وتبعتُها حتى أوصلتْني إلى السّقيفة حيث هدأتْ واستكانَتْ. انهمرت دموعها من عينيَّ طويلاً وأنا أقلّب بين الألبومات مفتّشاً عن حنينها القديم. وحين أوعزَتْ لي، جمعْتُ تركَتي في حقيبة بأرقام سِرّية، وضعتُ الصُّور والوطن والزمن والمسافة خاتماً في إصبعي، وسافرْتُ مضمِراً نيّة الغياب إلى الأبد.

٥- ٥-٢٠٠٧

سِفْرُ المطر

جيش النصائح الجرّار لم يوقف رحيلها إليه..

إرثٌ من الأغاني العاطفية وكلاسيكيّات السينما والرّوايات الطويلة وحكايات الجدّة، كلُّها كانت تتمحور حول بطولةٍ ما وصراعٍ بين غيمتين:

من المطر أتينا وإلى الأرض نعود..

في المحطة مرتين

لم أتّخذ قراريَ الأرعن بين ليلةٍ وضحاها، ولا أنا ذاهبةٌ يأساً في رحلةٍ وراءَ مجهول. بل أخرج وأنا بكامل أناقتي وقواي العقلية، مرتديةً نضجي الثلاثيني، معتمرةً كلَّ أفكاري ومعتقداتي وفلسفتي الخاصة في الحياة، سعياً وراء قصة حب.

سأكتب تاريخ اليوم في سيرتي الذّاتية كإحدى اللحظات الحاسمة في عمري، عمري الذي قضيته أبحثُ عن سرِّ الحبِّ وخفاياه، دون أن أصلَ إلى نتيجةٍ واحدة محدّدة وجليّة الوضوح. دوماً نفسُ الأخطاء، وغالبا نفس الخطوات والمطبّات والحُفَر.

لم أعقد العزم على فكرتي هذه في نفس اليوم الذي خرجتُ فيه من باب المحكمة الشرعية وعلى جبيني دمغة مطلّقة، بعد خمسة عشر عاما من زواج ناجح، مع رجل تحسدني عليه كل النساء. سنوات لم يتخللها مشهد عنفٍ واحد، بل إن الصَّفعة الوحيدة التي طبعها زوجي (سابقاً) على وجهي، ولوية الذراع التي كادت أن تكسره، لم تترك ذلك الأثر العميق في نفسي. وأستطيع أن أؤكّد أن باقةَ الأزهارِ الحمراء التي تلقَّيتُها في صباح تلك الليلة المميَّزة، ودموعَه التي أغرقت شعري في عناق اعتذارٍ حميم،

أنستني وبسرعةٍ طعم اللّطمة وأسبابها الواهية.

لم ألملم أمتعتي بعد شجارٍ مرير، ولم نختلف على أساسياتٍ أو تفاهاتٍ طيلة تلك الأعوام. كان كلُّ شيء يبدو متوازناً، متألقاً، وعلى ذلك القدر من الاستقرار الذي لا يمكن أن يتوقّع له أحد من المقربين نهايةً مفجعةً كانفصالنا الذي كان.

أخذتُ القرارَ بتركِهِ قبلَ خمسِ سنوات تقريباً، منذ أن بدأ الروتينُ الذهبي يمسحُ حياتنا بلمسات "ميداس"[1]، لا ليزيدها بريقاً وثراءً بالطبع، بل ليحيل مذاقها إلى مذاق معدني.

كنّا نخطفُ الأبصار كأجمل عروسين، وأتقنّا الدور الذي جعلنا ثنائيا ناجحاً في المجتمعات والحفلات والرَّحلات الصيفية الجماعية. يمكنني أن أقول بأننا كنّا مختلفين تماما كالسالب والموجب، وحقّقنا المعادلة الصعبة التي توازن القارب وتضع في يد كلّ ربان مجدافاً وتمنحه فرصتَه كنصف قائد.

ولكن... من قال إن الحبَّ توازنٌ ومعادلة وثمارٌ لامعةٌ بلونٍ واحدٍ وبلا طعم؟؟

نعم، تعذّبتُ كثيراً لأبلغَه قراري، وتطلَّب الأمر خمسَ سنواتٍ لأستجمع جرأتي وأدعوه للعشاء الأخير وأقولَ له بكلّ مودةٍ ودموعي تتهمرُ دون توقفٍ أسفاً عليه:

- "طلّقني"...

---

١ في الأسطورة يتحقق حلم الملك ميداس ويتحول كل شيء في حياته إلى ذهب حتى الطعام والشراب والفراش فتتحول حياته إلى جحيم

أنا ذاهبةٌ الآن إلى موعدٍ انتظرتُه طويلا. موعدٌ مع حبّي الأول، الذي أسماه إحسان عبد القدوس "الوهم الكبير". ولو كان يصحُّ إلقاءُ اللوم على أحدٍ ما، لكنتَ يا إحسان المسؤول عن حياتي الزّوجيّة الناجحة، بسبب كتابك "زوجة أحمد"[1]. فمنذ أن أهداهُ لي صديقٌ حسن النوايا قبل زواجي، ونفّذتُ ما جاءَ فيهِ بالحرف والكلمة، أصبحتْ حياتي مُحْكَمةً بطريقةٍ لا تطاق.

لست ذاهبةً لأستعيد هذا الحب، لا، فهو لم يعد يناسبني. أنا ذاهبةٌ لأقوّض الوهم، وأكتب الخاتمة للعلاقة الوحيدة التي بقيت نهايتها معلّقة. ذاهبةٌ لأضع حداً لتلك الأفكار العذراء المُترفة التي مازالت تؤرّقني وتدور في أعماقي كحكايات الأساطير. ذاهبةٌ لأكتب خاتمةً واقعيةً لكلِّ الرومانسيّات الحالمة، لأثبتَ لنفسي أنني لم أكن على حق، فأعود لبيتي عودة الزوجة الخاطئة، وأطلب السماح، وأدفع ما تبقى من عمري على أقساطٍ منتظمة، في الخميس الأول من كلِّ شهر.

لماذا أبدو أجمل من كلِّ يوم أيَّتها المرآة المخاتلة؟
لماذا تعيدين لي بهاء طفولتي وأنا مدجّجة بكلِّ أحابيل النساء؟
لماذا تمسحين عن وجهي كلَّ الخطوط المائلة، وتنيرين بخبثٍ ظلال العمر تحت عيني؟

---

١ وفيه يصور إحسان عبد القدوس الحياة الزوجية بطريقة مثالية

بشيطنةٍ مُضمَرَة لا إرادية، وقعتْ يدي على فستانٍ مخططٍ من موضة الثمانينيات، تصادف أنّها عادت لتكون موضة السنة، فارتديته. وبدوت بتنورته القصيرة وشعري الطويل المُسبَل، تماما كهيئتي إلى لقاء الحبِّ الأول. كانت المدينةُ القديمة تعزف أنشودة المطر، والشوارع مبتلة بأيلول كأوّل أيام المدرسة، إلا أنّني تمنيتُ سماع دقّات قلبي بأذني تطغى على ازدحام ساحة "جورج خوري"...

قلبي متماسكٌ تماما.

خلته سيغرف من مخزون الحنين، ويعينني على لحظاتٍ تاقَتْ إليها الذاكرة، وبَرَدَتْ بخشونتها كلَّ الأسطح الملساء لأيامي الرتيبة الماضية. لن أرضى بالخذلان، سأبحث بجهد عن خيبة أخيرة لأعيش بسلام، وأختم بالشمع الأحمر آخر الأفكار المُقْلِقَة عن حبٍّ لا يهزمه زمن.

أخذ الهاتف يرنُّ على الطرف الآخر، والرّنين في قلبي يوزّع صداهُ في الجمجمة...

- أنتِ ثانيةً؟

- نعم أنا...

- ماذا تريدين؟ قلتُ لكِ في المرّة الأخيرة إذا لم توافقي على لقائنا فسأغلق السماعة..

- ...

- هـا؟؟

- حاضر سنلتقي.
- ساحة "جورج خوري" في تمام الخامسة.
- كيف ستعرفني؟
- أنتِ تعالي إليّ، ألم تقولي بأنك تريّنَني كلّ يوم وتعرفينني جيداً؟
- حاضر.

كمرايا السيرك، عكستني سمينةً، محدَّبة، ووجهي ممطوط. حشرتني بين دفتيها، أخلع وأرتدي كل ثياب العائلة. بفستان العيد بدوتُ فظيعةً بكشاكشه الملونة، كدمى الواجهات التي تسيّل لعاب طفولتي. بفستان أختي الكبرى تجاوزتُ عمري ببضع سنوات، واللون القاتم الخريفي داعب ورودي بشحوب غامض. أرخيتُ ذيلَ الحصان المشدود فوق رأسي، وأجرمْتُ بحقّ تموُّجاته تمشيطاً وتمليساً حتى بدا صارماً وموحياً كستارة مسرح قبل بدء العرض. حشرْتُ قدميَّ بحذاء أمي، وأسرعْتُ هرباً أبتلع ألم إصبعي الكبير المحشور في مقدمته المدببة، قبل أن يثيرَ اختفاء الأشياء تساؤلاً حول وجهتي المشبوهة.

لم تعد الأمورُ مخيفةً بذات القدر، لكنَّ لذة الخوف تتسرّب إلى دمي. في رأسي صورةٌ لشابٍ مفتول الجسد مربوع القامة. يغطّي عينيه بنظارة (ريبان) سوداء. ويمشي بسرعةٍ مجدفاً بذراعيه. طريقُه مشدودٌ إلى الأفق وينتهي عند حدوده. له لحيةٌ متناسقة الوقار كمسيح منزّه، وشعرٌ أجعد كيوحنا المعمدان ضحية سالومي، وابتسامةٌ مواربة المعنى كشيطان الغواية الذي لا يَقْدِرُ عليه أحد.

وله مكانٌ ثابت في الساحة الكبيرة حيث يقف كل مساء يقلّب الوجوه والفساتين، كأنَّ الساحة بيته، وكلَّ المارة زوارٌ لديه.

كانت صورته تكبر في رأسي كلَّ يوم، كشجرةٍ مزروعة في خيال خصب. أراه مرَّةً بهالةِ نور فوق رأسه تتبعُهُ أنّى تحرّك، يمدُّ يداً من البياض ويقدّم لي أوراقاً عليها كتابة، وتزكُمُ أنفي رائحةُ بخور قوي. وفيما يتلاشى الحلم في الدخان أنتشي بيقظة الغافل عن الدنيا. ومراتٍ يكبس على نومي بقرنين وذيل ينتهي بشوكة، يمدُّ لي لساناً كلسان حرباء، يمسكُ أوراقاً عليها كتابة ويضحك، فأختنق بعجاج حريق يعسعس في الوسادة، أسعل وتدمع عيناي، وأقوم متعوِّذةً كالنَّاجي من الجحيم.

بأيِّ هيئة سيلاقيني؟ لا بد أن الزمن انتقم لي من وسامته. سيأتي وقد انحسر الشعر الغزير والتمعتْ صلعة، وشيبٌ مهيب تخلّل لحيةً وقورة. تتقدّمُهُ بطنٌ مرخية وتتأرجحُ على جانبيه ذراعان واهنتان. أم سيأتي بصورته الآسرة؟ مفلتاً أزرار قميصٍ أسود، كاشفاً عن صدر تغطيه شعيراتٌ طريّة تتغلغلُ في حلقاتٍ سلسلةِ فضةٍ يتدلّى منها نابٌ عاجي؟؟

لا أقدر أن أتذكّر أكثر. ولا أقدر أن أخمّن أكثر. فصوته مازال يغمرني منذ أمس بدهشة العجب:

- أنتِ!!!

- نعم أنا...
- أيُّ معجزة تأتي بكِ دوما في أوان المطر؟
- سأحكي لكَ عندما أراك...
- سنلتقي!!؟
- ساحة "جورج خوري" في تمام الخامسة.
- ولكن...
- قل إنك لا ترغب في لقائي وسأقفل الخط.
- حتما.. حتماً أريد أن أراكِ لن أفوِّتَ الفرصة.

هل أعود أم أمضي؟؟

انقلبت جرأتي ترددا. مخاوفي أجبن من المضي ورغبتي أقوى من العودة. حذاء أمي يلقّن إصبعي الكبير درساً قاسياً. والعيون كلُّها تشير إليّ:انظروا هذه الفتاة تعلّقُ قلبَها الراجف كقلادةٍ فوق صدرها. خوفي من العيون منعني من الالتجاء إلى حضن أقرب شجرة على الرصيف، أدفن وجهي في جذعها وأبكي أبكي. أشدُّ على حزمة أوراق كانت حجةَ لقائنا. خواطرُ كتبتها عنه، وضعتُ كآبة مراهقتي كلَّها بإنشاءٍ صادقٍ للقاءٍ مُتَخَيّل يكاد يصير شِعْرا. لا أريد أن أذهب، أريد أن أعود إلى سريري وأحتضن دمى القماش وأسمع "بزْعَل منك بهرب لَيْك" للبندلي[1] و"لّما بسمع صوتِك بنسى كل اللي بدّي قولو" لمصطفى يوزباشي[2]. وأتحيَّن وحدتي، رافضةً كلَّ الزيارات والمشاوير العائلية، وأنتهز غياب الآخرين وهدوء

---

١ فريق عائلة البندلي اشتهر في الثمانينيات

٢ مصطفى يوزباشي مطرب سوري اشتهر بالأغاني الرومانسية

الفراغ، وأرفع السّماعة وأضعها ألف مرّة قبل أن أتماسكَ ما أن يهمِسَ بخبثٍ ونعومة "ألو". أريد أن أراه كلَّ صباح وهو يقطع الدروب ماراً بباب المدرسة. أراه ولا يراني، لأنه يمرُّ لنراه نحن، ليستعرِضَ في عيوننا مراياه المبهورة، ليسبّل شعره إلى الوراء بماء وردنا، ليخفي وراء نظّارة الـ(ريبان) غرور أربعة وعشرين عاما من الصخب الفتيّ، ليحفظ الوجوه التائهة في ساحة "جورج خوري" بحثاً عنه، ويردَّ في غرفته على هواتفَ مجهولةٍ تذوبُ لهمسة الـ"ألو"، ثم يُغمى عليها قبل أن تُقفِل الخط.

كان يمكنُ أن يحدث ذلك كما خطّطْتُ له، لولا أنَّ الطّبيعة ثارَتْ في وجهي، وأرعدَتْ وأزبدَتْ حتى خِلْتها أُمّي، تلفُّ شَعري على ذراعها وتصرخ نادبةً ضلال ابنتها الصغرى وطيشَها المأفون. خِلْتُها تبكي وتخلع عن قدميّ حذاءها الجديد، وتهوي بكعبه المدبَّب على رأسي تَفتَحُ فيه ثغرة لإخراج الدَّم الفاسد. خلتها تسحبُ حزام والدي الجلدي وتهوي على جسدي المسكون لطرد الجن. خلتها ترفعُ شَعري عن رقبتي وتشيرُ لأخي هناك ليحزَّ السّكين. خلتها تمزِّقُ حزمة الأوراق وتنثرُها فوق جثّتي. خلتُني ميّتة في صباح الغد ممّا سيمنعني أبداً من الذهاب إلى المدرسة، بينما يمرُّ هو ساحراً صديقات الرّصيف، حتى لينسيْنَ لحظة مروره أن يبكين عليّ.

تآمر المطر على موعدي ثانيةً ورسم خيوطاً موصولةً بالأرض. رطّب البللُ خصلات ملّسْتُها بالحرارة فتكرمشت متموّجةً كستارةٍ

مسرحيّةٍ رُفِعَتْ للتوّ. أغرتني أشجار الرّصيف بعناقٍ باك، لكنَّ المطر اشتدَّ عاصفاً بالمارّة سريعاً للاحتماء هاربين. بدوتُ غريبةً في مهرجان الشتاء بتنورةٍ قصيرة -لا تناسب عمري- تهدّلت كشاكِشُها، وريحٌ ماجنةٌ تَتَسَلَّلُ تحتها تتدفأ بساقيّ. شددت قلبي المتهدِّج بالصُّور والأغنيات، كعصفورٍ نسي طريق الشمس وأخذ ينتفض قبل أن يموت.

سأمشي طريقا طويلةً إلى البيت، لأنَّ ما لم يحدث في أوانه لن يحدث أبداً، ولأنَّ قطار الحبِّ لا يقف في نفس المحطة مرتين. استسخفْتُ نفسي، وبكيتُ على زوج دافئ يضحك لنكاتي السّخيفة، ويمتدح أطباقي المحروقة، ويستسلم لمشيئتي كلّما أدرْتُ له ظهري وغرقْتُ في حلمٍ قديم.

في السّاحةِ الكبيرة، سيكونُ رجلٌ جميلُ الطلّة، عاش شبابَه طولاً وعرضاً يزرعُ على الطرقات وهماً، تاركاً زوجته في أمسيةٍ ماطرة من أيلول، واقفاً تحت مظلةٍ سوداء، ينتظرُ بلهفةٍ فتاةً أخلفَتْ موعدها للمرة الثانية خلالَ عشرين عاماً.

٢٠٠٣-١١-٣٠

وصولي

في الرأس تمشي الفكرة ونحن رؤوسٌ تمشي في فكر الكون.
هكذا كتب صديقي الشاعر، ومنه استقيتُ فكرةَ قصّتي، وكلُّ الشخصيات فيها مشتْ طويلاً في رأسينا معاً. صديقي أوصلها بقصيدة، وأنا عن طريقِهِ وصلت.

بقعةٌ فاضلة

(١)

كلّما كتب الملعون قصيدةً جيدة، تصدّعت في داخلي الكلمات وانهارت الحروف. كجرفٍ يأتي، تحرّكه هزّةٌ باطنيّة فيعيد تشكيل وجه الأرض. تقترب القارّات من بعضها، يتكلّس وجه البحر في أصقاعٍ بعيدة ويبتلع المدّ أصقاعاً أخرى. له خارطة خاصة لأطلس العالم، يعلّقها على جدار مكتبه، يشطب مدناً ويوسّع حدود الأوطان. لا يتحرّك من مكانه إلا ليملأ كوب الشاي الفارغ ويُسقط فيه وريقات النّعناع. وينكبُّ على الكومبيوتر كأخطبوط بثمانية أذرع. يحادث أربعة أشخاص في وقتٍ واحد، ويتصفّح كلَّ المواقع الالكترونية ليعرف ما الذي يكتبه الآخرون. يترك ملفّاً فارغاً ليسجّل جملاً تومض في مخيلته المزدحمة بالأفكار والصور، وحين يثمل بالقصيدة وتترنّح في رأسه المفردات، يهيّئ لنفسه مخرجاً فيتذرّع بإشارة مشغول ويتفرّغ للكتابة.

كدودةٍ بدينة يحفر في تربة الأفكار، وله خمسة قلوبٍ ليحبّ ما يأتي على هيئة نصٍّ فريد، ويلتهم ما يعترضه من أوراق. في

محادثتنا الأولى، بدا متعجرفاً عاجيّاً كبرج منذور لحراسة أفعوانٍ ملتفٍّ حول صندوق الكنز. مع الأيّام تكشّفتْ عيوبه الجميلة، وطغى حضوره على غموض المسافة، فتركتُهُ وحده يرتع بهيئةٍ خضراء في قائمةِ المحظورين على الماسنجر. نتحدّثُ بأصابعنا حتى يجفّ ريقها منتظرين ندى الصّباح ليبلّلنا بعد ليل طويل.

كاد الأمر يتحوّل إدماناً، وخفتُّ من تبعيّتي. أردْتُ أن أتخلّص من سطوته، دون أن أعلم أنّه بدوره يقاوم اعتيادي...

وتعاهدنا ألاّ يحظرَ أحدنا الآخر.

(٢)

ربيب المنتديات. لم أغفل عن سخريته الفاقعة عندما أطلقَ عليّ هذا اللّقب. تقبّلتُهُ برحابة، فبين الشباب لا مكان للكلفة والحساسيّة والتحليلات السوداء استنادا لنظريّة المؤامرة. فأن يُطلقَ عليَّ لقباً ساخراً وأتقبله بفكاهة يعني أن الجليد لن يتراكم بيننا ثانية. لكنّني أحجمْتُ عن إطلاعه على عناوين المنتديات التي أدخلها، وبالتأكيد أخفيْتُ مجموعتي الفريدة من أسمائي المستعارة. فما الذي سيفيدني إن أخبرته أنني أنا فارس الأحلام في منتدى شهد الليل، وسيف القوافي في منتدى إلهام، والواثق في مرآة الثقافة، والزير سالم في منتديات الشاب الوسيم؟ فليعرف بأنّني أيهم عوّاد، أهتمُّ بالثقافة وكفى.

شيءٌ جيد أن تعرف عن الآخر أكثر ممّا يعرف عنك، تأخذ منه ولا تعطيه. هذا مشروعٌ، خاصّةً مع مَنْ يُعطي دون حرص. يدخل

منتدياتٍ محدّدة باسمه الصريح، ينشر، ينقد، يحاور، ويدلي بدلائه الكثيرة في كلّ جبّ.

عندما صرتُ أتبعه أينما حلّ، أسجّل نفسي باسم جديد وأكيل له المدائح، أدركْتُ بأنّي أصبحتُ مهووساً به ولا مجال للعودة إلى الوراء.

(٣)

عالم الواقع فشل منذ الفضول الأول أن يجد على أرضه بقعةً فاضلة، فكيف يحدث ذلك في العالم الافتراضي ويد الإنسان تعبث فيه؟

فليشنّ حرباً على لصّ القصائد. في مدينتي، لا يُعترف بالانترنت كموثّق للمنشورات، ولا يشكّكُ قارئ بمصداقيّة صفحةٍ في أشهر دوريةٍ شِعريّة.

فكرتُ في الاختفاء، لكنّه لم يفاتحني بالموضوع على مرّ الشُّهور، وبدا أنَّ المطبوعة الشّهيرة لا تصل إلى قريته النّائية.

أمرٌ واحدٌ كاد يُفسد مخطّطي، أحد المتحمّسين الأغبياء كتب عن إبداع وضّاح المسفر الشّعري مقالةً نقديةً في منتدى الفكر الثّاقب، حيث يُعتبر صديقي أحد الأعضاء النّشطين. والمصيبة أنه ضمّنها مقاطع من قصائده.

(٤)

كان كلامه أثناء حوارنا يتساقط، يتعاقب، يهرول، يلهث، يكاد يتوقّف ثم ينبض ثانيةً من أثر الصَّدمة. تماسكْتُ وأكّدتُ له في

اليوم الأول أنّني لا أعرف من هو وضّاح المسفر، حلّفني: ألم تعش معي لحظاتِ القصيدة كلمةً كلمة؟ ألم أعرض عليك كلَّ ما أدخلتُه عليها من تعديل؟؟

ابتعدْتُ أسبوعاً ثم التقيتُهُ مؤكّداً: "يبدو أن غريمك شاعرٌ مشهور ولن يصدّقك أحد".

طالَبَني بدواوينِه.

بعد شهر من الصّراعات الالكترونية، ناداني مدير التّحرير في مجلتنا: "عليك الردّ بحزم يا وضّاح على الافتراءات"، وأضاف بنبرةٍ تليق برجال الأعمال: "المجلة ستدعمك". وكان كافياً أن أعرض مخطوطات المراحل المختلفة لقصائدي بخطٍّ اليد مؤكّداً بخجلٍ أنّني لم أدخل بعد عصر الانترنت.

(٥)

بقي صديقي ممتنّاً أنّني لم أتخلّ عنه في محنته. واعداً أن ألاّ يُطلع أحداً غيري على قصائده الجديدة، حالفاً أبداً مقاطعةَ النشر الالكتروني، لاعناً لصوص المنتديات.

٣-٢-٢٠٠٥

انتر/نت

عـرفتُـهُ فـي عـالمٍ لا تـعـرفـون عنْـه شـيـئـاً يا بابا، عُـذريٌّ جـداً، وأحلفُ برأسِكَ أنَّهُ لم يمسَسْني بشر.

لقاءٌ افتراضيٌ على أرضٍ عربية

وقفَتْ بروحها.. هي نفسُ المرأة التي كانت بطلة الرواية، تنتظرُ إطلالةَ الرَّجل ذاته الذي انسحب قبل نهاية العرض.

كان المطارُ يهمُّ بالمغادرين.. وأعناقٌ قصيرة الحيلة تطاول العيون بشوقٍ فوق الرؤوس، وتميلُ بين نغمةِ وصولٍ ووصول بلا اصطبار..

الآخرون كانوا هناك أيضاً.. كلُّهم، على شفير بكاء..

فلا العروس مشَتْ إلى حتفها راضية، ولا اكتملَتْ بهجةُ العائدين..

كان كلُّ شيء يخوض في غربةٍ موحشة، رغم ازدحام المكان بالطَّنين ولافتات اللقاء..

وقفَتْ ترتعدُ كرايةٍ على بيرقٍ مكسور، ترنو إلى كلِّ زجاج يصادفها لتتأكَّد أنَّها لم تسّاقط بعدُ، تمسح غمام عينيها وراء انتفاخات الترقُّب الرَّمادية..

سيأتي أخيراً.. الرَّجل الذي خلّف وراءه الماضي ووعد بالحضور.. كياناً كاملاً..

السيناريو الذي اشتركا في كتابته للموعد المنشود يراودُ التفاصيل المجهولة، رهناً بغير المتوقَّع..

لا بدّ من مفاجآت تربك مراسمَ الاستعداد.. هكذا علَّمتها الحياة.

وقفتْ تفركُ بين كفّيها القلق..

ليوم كهذا غادرت روايةً سابقة كانت فيها بطلةً مطلقة. وقبلَتْ دون مضض هذا الدَّور الثانوي..

طول الدّور غير مهم.. المهم الأثر..

حاولَتْ أن تتجمّل فلم تُفلح، كعادتها في مناسباتٍ مشابهة. بقي الأمل معلّقاً على حبٍّ ضرير..

قلّة النّوم، خطوط الزمن، والنفسيّة المرهقة، تفتّحت بثرةً في الجبين.. وامتصَّ الشحوب المسحوقَ الوردي فبدَتْ صفراء كحبَّةِ قمح..

تعرفُ هيئةَ القادم المُنْتَظَر، فآخر صورةٍ وصلتها مؤرَّخةً بالأمس، والله وحده يعرفُ كيف يغيِّر الخلق بين ليلةٍ وضحاها..

الآخرون تمادوا في البكاء، والعروسُ كأنَّها إلى الموت. تهالَكَتْ على صدر أمِّها والأخيرةُ تندبُ السَّفرَ في نحيب. وعائدٌ ملتاع، عانَقَهُ الفراغ، فسحبَ عربةَ الحقائب وحيداً وصافح الوطنَ

الغريب، ناسياً تقبيل البلاط المُداس جيئةً وغياباً.. لربّما يفكّرُ في الرُّجوع على متن ذاتِ الطّائرة.. مشى بندمٍ وئيد..

الرَّجل الذي انسحب من العرض لأنَّه ملّ التفرّدَ في المكرّر والمعروف، وعد بتاريخ الأمس أن يكون هنا اليوم. هكذا يتيحُ العصرُ الراهن انهمار الخطَابات حتى تعوم المسافة. وكانا كلّما تبلّلتْ أقدامهما بالحنين عزما على بناء الجسر..

كان لا بد من اللقاء إذن، فكل حكايةٍ تلفّ حبكتها شرنقةً حولَ حدثٍ رئيس، لا بد من مواجهةٍ وصراع..

بقي كلُّ الكلام يراوحُ في التّمهيد..

تساقطَتْ ببطءٍ حتى انسدل شَعْرُها المعقوصُ بأدبٍ لانسياب العرق. وإصبعُها المشؤوم شطبَ خطَّ الكحل في إزاحةٍ مباغِتَة لدمعة خوف..

لعلَّه عدل عن الانسحاب من هناك؟!! تفكّكَتْ.

إلى متى؟ تشدُّ زمام معطفها تنهبها العيون، كأنَّ على جبينها لافتةَ حبٍّ مسروق. يمسح المستقبلون لعابَ شرودِهم في نُواسِ مِشيتها. لكنَّها لا تهتم. لم تعد ترى أبعد من وجههِ المعلّق على زجاج عينيها. ضاق عليها هيكلُها وتململتْ به، حلّت أزرار معطفها، طغى حميمُها الداخليّ على صقيع الاغتراب، خلعَتْ حذاءها أيضاً،

وتمطّتْ كشراع فانتعشت دائرتا عرقِ إبطيها تحتَ نفخ الريح. أحسّت بخفّةٍ، وبأنّه ليس في انتظارها ما يُخلّ.

وصلتْ طائرةٌ من حيث سيهُبُّ، تدافعت أمواجُ النّاس، تكسّر طوفُ الصبر في احتدام القلق...

سألتها عجوز: طائرة لندن؟

صدّتها بنظرةٍ صمت.

مازالت مرئيّةً إذن.. التطفُّلُ يملأ المكان.

أُزهِقَتْ روحُ الانتظار.. تذكرتْ كلماته الأخيرة: سأقتلع كلَّ الأوتاد.. إليكِ.. غداً.

لعلّه لم يقصد غداً بالمعنى الحرفيّ والزمنيّ للكلمة، لعلَّ الغد لن يأتي أو جاء مبكراً أو عرقلته عجلة الأرض!. التصقَتْ خائبةً بالقاع، وتمادَتْ تنبشُ الفراغ..

لعلّه تقنّعَ بالفراغ؟!

كتبا في السيناريو عناقاً.. لكنّها لن تعانقه لو أطلَّ الآن.. ستمدُّ يدها فقط، ولن تنظر في عينيه..

كادتْ تثأر لنفسها بالمضيِّ إلى الوراء..

لعلّه تخفّى بالماوراء؟

أيكون هذا الأسمر التائهُ فيها تفرُّساً.. مشتبهاً بأنها موعدُه؟؟
لعلَّ الصورةَ خادعة والأصول مقعرة؟
أو لعلَّ الأوتاد مغروسةٌ أكثر مما ينبغي أو عطلاً أصاب الأجنحة التي استنبتَتْها في كتفيه.. ترجوهُ باستماتةٍ أن يطير.. ويتحوّل من حصانٍ إلى بُراق.
تستعيدُ الفقرةَ الأخيرة "إليكِ.. غداً" والتوقيت..
لا بدَّ أن خللاً ما ارتكباه في الكتابة..

انسدلَتْ العتمة وانتشر ضوءُ النيونات الباهت.. فرغ المطار..
لأول مرّة يفرغ مطارٌ بحضورها.. أيحدثُ أن ينتهي السَّفر؟!!

أحسَّتْ برعشةٍ موحشة فارتدتْ معطفَها، وأحكمَتْ ربط أزرارِه بهدوء. حشرَتْ الأزهار الغبيّة في حقيبتها، لن تستقبله بهديةٍ ميتة تقصّفَتْ سيقانها. غرّز الشوكُ بكفّيها، ففركت بينهما الألم..
استدارَتْ تكابد الصَّفعةَ. إلى خارجِ الرواية، العرض، السيناريو.
صارتْ حتى خارجَ الهوامش...

سمعتْ نداءً باسمها، كوحي إلهي..
ضابطٌ يسأل، افترشَتْ قدماها بساطَ الرَّكض..
- في الداخل رجلٌ غريب، موقوفٌ، يقولُ: إنَّه إليكِ..

تعانقا معلّقَيْن في سينٍ وجيم..
سجينين والدُّنيا لا تسعُهُما من الفرح.

٢٢-٢-٢٠٠٤

يا أمه يا..

لم أُطِقْ صبراً حين ارتجفَتْ البراءةُ في وجه ابنتي بكاءً وضابطُ المطار في لوس أنجلوس يُفرِغُ حقيبتها الصغيرة، ويعتصر دبّها بأصابعه الفولاذية الغليظة. نفضْتُ يدَ المفتّشة عن جسدي وهجمْتُ عليه كنسرة جريحة:

– لو كنْتُ سأنفّذ عملاً إرهابياً؛ هل تعتقد أنّني أخبئ متفجراتي في صدر ابنتي؟؟

لم يهتزّ جفنه الضّيق وأجابني بلغةٍ جارحة، متابعاً بقر بطن اللعبة:

Everything is possible –

بصيصُ خَطَر

يقع بيتُنا ضمن حيّز استراتيجي جداً، يحدُّه من الشّمال منزل مدير أمن الدولة، ومن الجنوب نادي الضّباط، ومن الشرق مبنى الفرع الرئيس لشبيبة الثورة. لذا كان البيت آمناً، نخرج دون أن نقفل الباب بالتّرباس الكبير. ومَنْ سيجرؤ على الاقتراب من منطقةٍ محاطةٍ بنقاطِ المراقبة؟؟

لو لم يمض على هذه الحكاية عشرون عاماً لما استطعْتُ روايتها إلا همساً وبالرّموز المشفّرة. لكنّ حوادثها انتشرتْ في ذلك الوقت حاملةً وجهي الحقيقة. وجهٌ يؤكّد أنّنا في مأمنٍ من أيِّ شبهة خطر، والوجه السّاخر لشبحِ الخطر نفسه.

أحد الحراس على سطح مبنى فرع الشّبيبة شاهدَ في إحدى الليالي بصيصاً ناريّاً صغيراً يُضيء لصقَ جدار بيتنا. ركّزَ بصره، اتّسعتْ الحدقة، حدّدَ المشهد بتضييق جفنيه فتوسّط البؤرة البصيص، يشتعل ويخبو بتواترٍ مريب.

لم يغادر الحارسُ مكانه، وبجهاز اللاّسلكيّ أبلغ حرسَ نادي الضّباط بالحركة المشبوهة. وبدورهم أبلغوا حرس منزل مدير أمن الدولة. كانت العبارة التي وصلتْ إلى مدير الأمن ليُصدر قراره

بالتحرّك أنَّ شخصاً مسلحاً يراقب المنطقة بجوار دار آل النّاصر منذ ساعتين، وتدلُّ عليه سجائر يدخّنها ببرود.

تُطَفّش حرارة الصّيف في مدينتنا الناس من بيوتهم، لأنَّ الأسطح مسكونةٌ بنظراتِ الحرّاس المريبة. ولا يمكن أن تقضي ليلةً صيفيةً مختنقاً بالهمسِ دون صخبٍ أو ضحكٍ حرّ.

كانت حارتنا الاستراتيجية خاليةً من سكانها تلك الليلة القائظة، حين تأهَّبت مفرزةٌ من نادي الضّباط وانسلّتْ محاوطةً دارنا من الجهة الخلفية. وخرجتْ جماعةٌ أخرى التفّتْ دائرياً حول فرع الشبيبة لتدخل من الحارة المقابلة تماماً وتفاجئ الدّخيل المدخّن. واستدعى حرّاس منزل مدير أمن الدولة تعزيزاتٍ حتى لا يغادروا أماكنهم.

وصل الدّعمُ الأمني، ولم يكن البصيص قد انطفأ بعد، فأبلغ الحارس صاحبُ البلاغ الجميع أنَّ الهدف لم يتحرّك وأن التوقيت ممتازٌ للمداهمة.

التقى الجميع حسب الخطّة في لحظة واحدة لتحقيق عنصر المفاجأة. خمسة عشر عنصراً مسلحاً وصلوا للقبض على الجاسوس البغيض، الذي لم تهتزَّ فيه شعرةٌ واحدة حين تمّتْ مواجهته بهجمةٍ مباغتَة.

أجل، بقي البصيص بكلِّ جرأةٍ ووقاحة يشتعل ويخبو بتواترٍ دقيق، فهكذا هي أجراس الأبواب الكهربائيّة الحديثة، التي ركّبَ والدي واحداً منها في نهار ذلك اليوم لهُ صوتُ عندليب.

١٤-٢-٢٠٠٧

شريعة

لتطهير النّفس لابدّ من إراقة دماءِ الجسد.
لتطهير الجسد لا بدّ من تقديم أضحية.
للتّضحية لا بدّ من أن تعثرَ على كبش؛
فالله لم يرسل كبشاً من السماء فداءً لإنسان سوى مرةً واحدة!!

أُضحيَةٌ بلا عيد

لا أحد يستقبلُ الأستاذ أسفل المبنى آخر الليل سوى البواب النوبيّ عرفة. عرفة والليل ستارٌ واحد، لا يخفي عنهما عبّاس زيارته لمنزل زوجته الثانية، دون أيٍّ خرقٍ للشرع الإلهي، ولولا أنَّ حدود البشر أحياناً تكون أمضى من حدود الله، لأتاها في وضح النهار. يجب ألاّ يعرف مخلوقٌ بعنوان بيته الجديد. هكذا أسلم، له وللنّاس ولآل بيته.

تبرير أرجيلة عرفة في ساحة المبنى بجوار المصعد، كأنّها تهمس: "عليكَ الأمان". مع ذلك، يحاول عباس أن يخطو بحذائه المطاطي بأخفّ ما يستطيع وزنه الثقيل. يتلفّتُ كلصٍّ مبتدئ، يتعرَّقُ كثيراً، ويتلثَّم بعُقَالِهِ خوفاً من عينٍ ساهرة.

الليلة سيفعلُها، برضاها أو رغماً عنها سيفعلها. من الأفضل أن تنجحَ خطّةُ ابنته ملاك، دون أن يضطر للخوض في نقاشٍ ودموع. بدتْ ملاك مطمئنَّةً لجدوى العملية. تغلّبَتْ على حيائها بحرصٍ وهي تعطيه التّعليمات:" لا تنسَ يا بابا، حبّة من فوق وحبّة تحت وفي الصباح ستظهر عليها الأعراض".

خوفاً من انبثاق شاهدٍ مفاجئ راقب السّهم المضيء فوق باب المصعد، اطمأنَّ للهدوء. ضغط زرّ الدور الثاني فبدت المسافة ناطحةً للسّحاب وهو يتنقّلُ بين طابقين. ليته لم يتزوّج رؤى، يبدو أنَّه لا مفرّ من إغضاب الله بطريقة ما، فالبشر لا يعرفون الرحمة. هكذا فكّرَ والندم يصحو متأخراً على ورطةٍ لم تكن بالحسبان.

المشكلة أن شرط رؤى الوحيد لتقبل به زوجاً، رغم خطورة وضعه العائلي المستقرٍّ كزوج وأبٍ وجَد، هو الإنجاب. حين حدَّثتْهُ عن شبابها الذي ضاع في الغُربة لتؤمِّن لنفسها دخلاً كريماً، وعن شهوتها المعذَّبة لطفلٍ صغير يُلحِقُها بركب الأمّهات قبل فوات الأوان، تعاطف معها حدّ المروءة، وعقد عليها في أمسيةٍ بدت فيها مكتنزةً بطريقةٍ لا تقاوم، ووجهها يطفح بياضاً بالحجاب الأسود.

كان وعدُ القدر قاطعاً أكثرَ من وعد الرّجولة، والعالم أضيق من فعلته الصّغيرة التي تحدُثُ مع غيره كلَّ يوم. بالصدفة، انحشرت زميلةٌ لابنته ملاك التي تعمل في مختبر تحاليل بدرب رؤى. تعارفتا وتبادلتا حديثاً نسوياً قصيراً بعد السّلام والكلام، فأصبحتْ القصة بحذافيرها في سمع ملاك قبل انتهاء الدوام. وباتصالٍ مقتضب: "لن أخبر أمّي إنْ أنت نفّذْتَ ما سأعلّمك بدقّة". وردّتْ على مخاوفه من مخاطر المجازفة ومضاعفاتها: "ألم تخفْ حين أقدمْتَ على فعلتك يا كبيرَنا!!" وزادتْ سياطها: "غداً ستصبح مضرب المثل، حين يتزوّج علينا رجالنا كيف ستحمينا؟؟" وحسمتْ توبيخها بسخريةٍ سامّة:

"سيلعب أحفادك مع أخوالِهم الجدد في روضةٍ واحدة!!"

بدت رؤى ملاكاً أبيض بثوبٍ شفّاف، وما كسبتْهُ من وزنٍ في الشهرين الماضيين شدّ بشرتها كفرسٍ فتيّة، لا يمكن أن تحزرَ أبداً أنّها بلغت الأربعين. كلُّ ما فيها بضٌّ وبكر.

لهذا السّبب ولأنَّه يخاف الله، لم يعقد عليها متعةً. سجَّل الزّواج رسمياً وتوخّى كلَّ الحذر بالأساليب المعروفة منعاً لحدوثِ حملٍ يقطعُ عليه سلاسة الأيام الأولى وجمالها.

ومَنْ سوى أرضٍ عذراء قادرٍ على ابتلاع قطرة ندى لتبرعم مكانَها سنبلة؟؟

اكتفَتْ بقطرةٍ واحدة، وجاءَتْ تبشِّره بالحمل.

بعد ليلةٍ هيّاجةٍ بالحب، قضاها عبّاس يتفنّنُ بإثارتها، تفاجأت رؤى بسائلٍ طبشوريٍ أبيض يسيلُ منها في الاغتسال. لم تتفطَّن لماهيّته لثلاً تعكّر صباحَها الجميل! أنهتْ صلاتها حامدةً الله، داعيةً أن يرزقها بالمُنْتَظَر. جاءت بفنجانيٍّ قهوة إلى السرير وهمسَتْ في أذنه: "صباح الخير". تمطّى طالباً منها كوب حليب. وضعت القهوة وتوجَّهت إلى المطبخ، وبطيبةٍ وغبطة فكَّرتْ بأنَّه معها يزدادُ شباباً وصحّة..

تشاركا شربَ القهوة. وتلذَّذَتْ كالعادة، دون أن تنتبه لفتافيت بيضاء تسبح باستدارةٍ حُرّكت للتّوّ فوق رغوةِ البنِّ والهال!!

١٢-٣-٢٠٠٥

تطرّف

لم يكن وحدَهُ، زوربا من قبله، وكلُّهم حين يشتدُّ بهم الإيقاع يعتقدون أنَّ الماء سيتفجَّرُ من تحتِ أقدامهم. راقص الفلامنغو والدّبكة والصوفيّ وحتى طائر الحبارى، فالأرض شريكٌ راقصٌ للتوحّد مع الوجود..

لكنّ شيئاً من ذلك لا يحدث يقيناً، فلا الأرض تتكسر تحت وَقْعِ الشَّك، ولا زمن الموسيقى يتوقَّفُ بعد انتهاء الرَّقص.

بروفةُ رقصٍ أخيرة

تضيق ممرّات الكواليس، كغيمة دخانٍ في علبة رطوبة. يحني راكان جذعه ليربط بإحكامٍ حبل حذائه الطويل. منذ لحظات ساعد نوف في لفِّ شال على رأسها، وراعه أن عينيها غائرتان في عظام وجنتيها، لكنَّ الوقت لا يسمح أبداً بالتلكؤ العاطفي.

الليلة افتتاح المهرجان المسرحي والفرقة كلُّها تتشارك ارتعاشات القلق ونوبات التوتّر. آخرها شجار حاد بين فتاتين اختلفتا على مقاسات الأحذية. لَكَمٌ يبدو ذلك سخيفاً لو أنَّه حدث في ظرفٍ ومكانٍ آخرين، لكنَّ اختلاط الأحذية في ليلة عرضٍ يعني الكثير بالنِّسبة لهؤلاء. راكان نفسه يعاني من مسمارين لحميَّيْن أسفل مشط القدم. يفركهما بحجر الخفّاف الأسود ويحفّهما بمبردٍ معدني، واضطر كثيراً لقشطهما بشفرة الحلاقة حين لم تنفع لصاقات الكيِّ، لكنَّهما يتوالدان بسرعة رهيبة. يؤدِّي رقصته الرئيسة كقائدٍ للفرقة كأنَّما يرقص حافياً على الصّخور. وفيما يُطلُّ الألم برأسه من عينيه، تنجح ابتسامته الواسعة في تمويه انقباض ملامحه ويستعيضُ بصيحات الحماس عن صرخات الوجع.

يقبّل جبهة نوف وراء الستائر السوداء قبل أن تخرج لتفتتح الرّقص، تهتزُّ بين يديه كالمحمومة، وعرقٌ يخطُّ طريقه فوق طبقات الماكياج.

يمازحها: "وكأنَّها المرة الأولى؟!! ". يعطيها دفعةً باتجاه المدخل، تعلو الموسيقى على كلِّ صوت.

يمرُّ بين الشّباب والصبايا ليضع لمساته المشجّعة الأخيرة على أعصابهم. نظراتهم تحملُ معانٍ مختلفة، بعضها غيرة وبعضها ولاء وكثير من الشهوة. جسده مفرودٌ باستقامة رمح، مشدودٌ بقماش مطاطيٍّ أسود، تلتمع عضلاته عند الحركة كجلدِ حصانٍ أصيل.

مازالت هناك بضع دقائق على دخوله، فهو المدرّب ورئيس الفرقة. وعلى هذا الأساس يجد في الصَّرامة أسلوباً مناسباً للتَّفاهم مع الراقصين. وحين يحتاج الأمر؛ يجد في نفسه فائضاً من أبوّةٍ حانية ومرونة لحلّ الخلافات الجانبيّة المستعرة. وكان صاعقا للفتاتين أن يكشف أمامهما عن مسماريٍّ قدمه ليكون قدوةً في احتمال الألم، وتذهب كلٌّ منهما راضيةً بضيق حذائها.

قد لا يصدق أغلب المصفِّقين أن الرقص الجيّد تعبيرٌ عن الآلام، لكنّها الحقيقة. في التّدريبات يكرِّرُ عليهم: "الرقص التعبيريُّ لغةٌ عالمية، فلا تضربوا الأرض كبشرٍ يرقصون بل كقطيعِ أحصنةٍ برّيةٍ حرّة". يتنقّل راكان من غرفة إلى غرفة، يتفقّد الأزياءَ وأعداد الراقصين ويراجع ترتيب اللّوحات. يجلس صامتاً هادئاً لثوانٍ معدودة، ثم ينهض فجأةً ليسير في الممرات ريثما يحين دخوله.

يجب أن يكسب الرِّهان، ولن يكون ككبش الفداء في صراع المسرحيين. تلقّى الدعوة لمشاركة فرقته في افتتاح مهرجان المسرح. وقد يكون خاطرٌ مر بباله أن دعوته غير نظيفة وأنه سيكون الشوكة التي يضعها فريقٌ في حلق فريق آخر، لكنَّه أبداً لم يفكر في رفض الدعوة. الفرقة تحتاج فرصتها أيضا. يمنعهم من العمل في المرابع الليلية ويمنعهم من الرقص كأفراد. يعاملهم كالفرسان، الكلُّ في خدمة الواحد. تطلّب منه هذا الكثير من الوعود الكاذبة. أخلف وعدَهُ بقرطاج وجرش وبصرى ولم يف حتى بمهرجاناتِ التسوُّق الخليجية، وبدأت الإخفاقات المتتالية تضعفُه وترخي طرفَهُ من الحبل.

جائزة مهرجان البادية كانت بدايةً هزيلة، لكنَّها أسكتَتْ الفريق المعبأ بطموحات القائد. وكذلك العروض المتتالية في معرضِ المدينة الدولي. الآمال كانت متجاوزةً وكبيرة.

وحده تحدّى كثيراً وانتقى الأعضاء بدقّةٍ لا تنازُلَ فيها. بذل معهم جهوداً ابتدأت بألف باء الحركة، وفرضَ عليهم نظاماً غذائياً ليكتسبوا ليونة القرود وجمال البجع. في الليل يطوِّر خطوات الدّبكة ويأخذ من تراث كلِّ قرية سمةً لصنع لوحة، ويفاجئهم في الصّباح بتدريب جديد. "المحليّة أقصر طريق إلى العالميّة" كانت هذه هي فكرته الحالمة عن المستقبل.

لا شيء يمكن أن يخفِّفَ قلقه على نوف، أصغر الفتيات وأكثرهنَّ رقّة. جاءت إليه كسحليةٍ صغيرة خالية من العظام، ملتفّة

على غصنٍ طريٍّ أخضر. تتلوّى أثناء الرَّقص دون عناءٍ أو لهاث. عندما تقفز تبدو كفراشة فطْرَتُها التحليق إلى أعلى. بعد الدَّرس الأول فكَّر أنَّها عاشَتْ في حياتها الأولى غزالةً رشيقة، يمكن للنَّاظر أن يتأمَّل هيئتها لبرهةٍ وهي معلّقة في الهواء قبل أن تهبط بهدوءٍ على الأرض. جعلها بدون تردّد ورقته الرّابحة في المفتتح والخاتمة والمشاهد الرئيسة.

كانا يتعانقان في التّدريبات كبجعتين، أو كحيّةٍ وشجرة في أسطورة الخَلْق. يستقيمُ جسده أكثر كلَّما تسلّقَتْ قامتَه الباسقة، لتبدو كشراعٍ مفرود للرّيح ويصبح هو كصاري السّفينة يدلُّ عليها مهما جنّت الأمواج. نشأت بينهما لغةٌ خاصّة، وفي المرّات القليلة التي تحادثا فيها خارج أوقات العمل استعانا بالحركة لإيصال المقصود من الكلام. كان بإمكانه أن يخفيها في حضنه تماماً، ويطيبُ له أن يلُمَّها بين ذراعيه وساقيه حتى تختفي ككنغر صغيرٍ في جراب أمِّه. شيءٌ من سطوة المعلّم وآخر من هيمنة الذكورة استشرى بينهما. تنصاع له دون نقاشٍ بشيءٍ من ولاء التّلميذة وآخر من ضعف الأنوثة. تستطيب الانسحاق فتثير فيه غريزة التملّك. وفي مراحل متقدّمة صارت قسوته ملحَ العلاقة. أشهر قليلة مضت ليعرفا أنَّهما قطعتان من طينةٍ واحدة، إحداهما جفت وقست والأخرى مازالت في طور اللّين.

لم يعد للآخرين وجود.

إنَّها تستثير الحضور حماساً. يصلُهُ التّصفيق، يُمرِّر رأسه في عتمة الكواليس، ينظر إليها تباعد ساقيها برشاقةٍ منقلة، ليصبح ما بينهما مئةً وثمانين درجة. ويشكِّل جسدها زاويةً قائمة وذراعاها يتقاطعان كلحنين منسجمين.

يدخلُ حالة انعدام الوزن. يتحوّلان رائدين في فضاءِ المسرح، تمرُّ بينهما كواكبُ الإضاءة الملوّنة. يتحرّكان كشعاعيٍّ ليزر لا يمكن أن يخترقهما شيءٌ دون أن يكون في مروره احتراقه المؤكّد. هكذا حدث في أحيانٍ كثيرة، حين حاول أفراد الفرقة تخليصهما من بعضهما البعض، ليبقى راكان محتفظاً بهيبة المعلم، وتؤطَّرَ نوف راقصةً كالأخريات. لكنَّ الشَّوك كان يحفُّ بالطريق إليهما. أحدٌ لم يعرف ما الذي يحدث حقاً، يستيقظان من الحالة فيحرِّرُهما منها النّسيان، كأنَّها غيبوبةٌ مغلقةٌ على أسرارها، وتبقى الكدمات شاهداً أخرس على جسد نوف.

تترنّح على الخشبة، تكاد تسقط، يحملُها بقلق مجنون، يُدهَشُ الحضورُ لصدق التّعبير ويحين دخول المجاميع الرّاقصة ليُنقِذ الموقف. يتسلل بها إلى الكواليس المظلمة، يمسح رأسها بحنوٍّ ويضمّه إلى صدره لافظاً: " برافو كنتِ رائعة". تبتسم نوف ضاغطةً على ألمٍ ما. سائلٌ كثيف يلصق ثوبها بجسدها. " يبدو أنّنا تمادينا كثيراً هذه المرة" يخرج صوتُها وشوشةَ وَجَع...

في البروفة الأخيرة والمسرح خالٍ، تدرّبا. كما تبدأ الحالة كلَّ

مرة. حبوب المهدِّئ تنفع غالباً لكنَّهما لا يرتدعان. حين تصبح بين ذراعيه لا تعود اللَّمسات المطلوبة كافية وتدبُّ في ساعده شدَّة الرَّغبة. يُمسك بشعرها حتى تكاد تسمع بأذنيها اقتلاع جذوره، فترتخي. يهوي بها على الأرض فتتلوّى. تثيره طواعيتها فيمتحنها، يضغط على خصرها ليعرف من أين ستخرج منها الرّوح، تزداد خفَّةً ولينا وحياة، تنبعث منها رائحةٌ بكر لأنثى حقيقية، وبالخط الفاصل تماما بين الرفض والقبول يتماهى التعبير، أتريد أم لا تريد تلك هي المسألة!! يعطيه تأوهُهَا دفعةً للمضيّ، ويعطيها غيابُ وعيهِ خدراً للاستسلام. يصفعها، يتحسَّسُ طقَّة فكّها الصغير، تغرس أظافرها في وجهه، تبهتهما اللّذة. تلفُّ ساقيها حول جذعه كحبلٍ متين، يلفُّ أصابعه حول عنقها ويتابع تدرُّج ألوانه إلى الأزرق، حتى تتخبَّط قدماها كذيل سمكة على أرضية زورق. يتلاطمان كموجتين، يتناوران أسداً وفريسة، يستمتعان حدّ الأذى، يزدادان قوةً كلّما تماديا، ترتفع في عضلاتهما أحماضٌ أساسيّة، وعندما يقبض عليها بين فكَّيه كتمساح، تتكفَّل عيناها بالدموع. هنا يكون الأمر قد انتهى، ويسودُ هدوء.

يستعجل راقصٌ دخولَهما المتأخِّر، يحمل راكان الخائف نوف بين ذراعيه ويدورُ حول نفسه في ضباب الممرَّات المعتمة:

"أريد طبيباً نوف تزف"

يُسدَلُ السّتار على لوحاتٍ ملصقةٍ ببعضها بلا معنى، دون خروجٍ أخيرٍ للبطلين.

يصفِّق الحضور بالعدوى. ومشهدُ الخاتمة يحدث بصدقٍ وراء الكواليس، راكان يتابع روح نوف تخرجُ من ابتسامة عشقٍ واهنة، يشدُّها إلى جسده ليعيدَها إليه، يشدّ أكثر، يضغطُها إلى صدره، يشدُّ، يضغطُ...

٢٠٠٤/١٢/٢٩

عبرةُ القراصنة

طيلة النّهار تبحثُ في المخابئ المعتادة. في المحفظة والشّنطة وتحت أكداس الملاحف، وفي عمق كلِّ رفٍّ من رفوف المكتبة الكبيرة. ارتفعت نسبةُ السُّكر في دمها وبدأ صداع الضَّغط ينتفضُ في صدغيها، وتهدَّجت خفقاتُ القلب.

كادت تقع لتصل إلى الهاتف قبل أن ينقطع الرنين:

- للمرَّة الثَّالثة؟!!! وضعتِها بين دفّتي القرآن..

- عرفتِ الآن؟!! خوفا من قصور الذّاكرة لا من اللصوص، رسم القراصنة الخرائط لأكثر المخابئ أمناً!!!

ورقةُ نعيٍ للذّاكرة

تسعُ سنوات وأنا أدخل وأخرج يومياً من البوّابة الجانبيّة لجريدة الرأي الحرّ.

تسع سنوات كالآلة، أختم بطاقة الدوام لتسجِّلَ أنّني لا أتأخَّر عن موعدي دخولاً أو خروجاً.

تسع سنوات أُصبّح فيها على مدحت وعادل وكريم وأبو حسن وصفوان وهيام وخالد وأم زلفى وأبو هادي وكومار ودلوار وإسلام، وكلِّ الذين كانوا قبلي أو جاؤوا بعدي إلى المكان. علاقة عملٍ بحتة، لا تنفي أن أسأل عن صحَّة أبو عادل المريض بالسُّكري، ودراسة أولاد أبي حسن في القاهرة، وكرت الزّيارة المستعصي الذي يحاول دلوار استصداره لعروسه الهنديّة، وأخبار عائلة إسلام في باكستان بعد أن قضى منهم اثنان في الزلزال الأخير...

هم أيضاً يسألون.

تسع سنوات نتبادل فيها الأسئلة والإجابات. أولُ العالمين بفرح بعضنا وأول المواسين بالأحزان. يدٌ واحدةٌ في مواجهة قرارٍ ظالم يطالنا بالجملة، كزيادة عدد ساعات الدوام. وخناجرُ متحفزةٌ

للطَّعن عندما تقتضي سياسةُ العمل التّفريق بيننا، كما حدث في المساءلة عن كشوفات الهواتف الدوليّة!!

اختلطت أحاديثنا، همومنا، شجاراتنا، لهجاتنا ولغاتنا، وروائح مزيجنا البشري.

- إنت شلونك اليوم كومار زين؟

- زين، والله مدام إنتَ واجد إنسانيات.

- وإنتَ كومار نفر زين، يللا سوّي قهوة مالتي وتعال أنا يعطي فلوس حق إنتَ.

- مشكور مدام.

أمانٌ لبعضنا وتهديد، تسع سنوات ونحن الغرباء نتّفق في أننا غرباء ولا شيء آخر. كذلك الأشياء، موقف السيارات، مظلات التوتياء المتآكلة بالرطوبة، أرضية مدخل الجريدة المفروشة بسجّادٍ مهترئ، أبواب المدراء المدهونة باللّكر، الحواجز الزجاجيّة المنخفضة بين مكاتبنا، حمامات القسم الفائحة بخليط النشادر والكلور، مصلّى الرجال، مطبخ كومار وفتات الخبز المحترقة على السخّان، لوحة الإعلانات تغطيها ثقوب الدبابيس المثبتة للقرارات والإنذارات ولفت النّظر والنعوات والدعوات العامّة.

نعوة جديدة!!

اقتربْتُ، وبدون النّظّارة لاحظْتُ خطوط الحبر الطوليّة التي أخذَتْ تشحطها ماكينة التصوير مؤخراً..

اقتربْتُ، ببالغ الحزن والأسى.. الزميل عصام أحمد عبد العزيز سيف المنياوي...عن عمرٍ يناهز الـ.. للمساعدة هاتف.....
جزاكم الله .. إنّا لله وإنّا إليه راجعون..

استوقفْتُ هيام في الممر:

- مين عصام أحمد عبد العزيز سيف المنياوي؟؟

- ما بعرف!!

أشرْتُ للنّعي، نوَّسَتْ عينيها، شهقَتْ:

- يا حراااام، عصام مات؟؟

كرّرْتُ سؤالي بفضول:

- مين عصام؟؟

- مستحيل، هذا عصام موظّف البدّالة الأسمر!!

- أعرفُ كلَّ موظّفي البدالة، أيُّ واحدٍ منهم؟؟

- تعرفينَه، أكيد، عُيّن في الجريدة قبلك بشهرين تقريباً.

- !!

- ولك يلي جاب صدر كنافة بمناسبة مولوده الأول العام الماضي.

سُدَّ حلقي بغصّةٍ جارحة، كأنَّ لقمة كنافة خشنة متكوِّرةٌ فيه منذ عامٍ كامل!

أكملْت هيام طريقَها إلى الحمّام لتأخذ جرعة نيكوتينها الساعيّة، وبقي ذهني يبحث بين أرشيف الصُّور عن شابٍ مصريٍ أسمر اسمه عصام، أبٌ لطفل في عامه الأول، وموظَّف منذ تسع سنوات وشهرين في قسم البدّالة.

وراء الزُّجاج منكبّاً كمصباح مكتبيٍّ عتيق يجلسُ أبو حسن. أقدم موظف في الجريدة. أقدمُ حتى من رئيس التحرير ومن صاحب الجريدة نفسه. يتندَّرون فيقولون بأنَّه بيع مع المبنى ضمن الممتلكات. تجاوز السبعين من العمر ويجدِّدون عقده لأنَّه من فطاحل التصحيح اللُّغوي.

نزع أبو حسن نظَّارته السّميكة:

– يا ابنتي عصام من خيرةِ الشَّباب رحمه الله. لم يقطع فرضاً، كان يذكّرنا دوماً بأوقات الصَّلاة. ارجعي إلى يوم طلبْتِ منّي فيه أن أرشِّح لكِ شاباً ليقوم بتوصيلكِ، ريثما تُصلحين سيارتك بعد الحادث؟ صحيح، ماهي أخبار السيَّارة؟ كلُّ مَنْ رآها لم يصدِّق أنَّكِ خرجتِ حيَّةً منها...

– أبو حسن السيَّارة صارَتْ سكراب، خلينا بالموضوع، أذكر حينها أوصلني شابٌ اسمه محمد.. وليس عصام!

– محمد ابنُ عمّه، وقتها حكيْتُ لعصام رحمةُ الله عليه وما قصَّر. تعاطف مع قصَّتِك واتَّصل فوراً بمحمد و..

الوجوه كلُّها مطبوعةٌ بذاكرتي، والزَّوايا. طرف طاولتي المبريِّ من احتكاكه بباب خزانة الملفَّات، فتحات التكييف المحشوَّة بأوراق الجرائد لصدّ لسع الهواء البارد عن كتفي الأيمن، صور بنات أم زلفى تحت بلّور مكتبها، المسند الخشبيُّ تحت قدمي صفوان، علبة الجبنة وكيس الكعك في درج هيام، كمبيوتر خالد ومرآةٌ زرعها فوقه ليتلصَّصَ منها على فتيات قسم الإعلان، إلاّ عصام. عصام فجوةٌ في الذّاكرة، ثقبٌ في فضاء الفوضى!!

جاء دلوار المراسل النّشيط بأخبار الوكالات، وضعها في السَّلَّة المخصَّصة.

- دلوار، مين عصام هذا ريَّال مكتوب بالورقة موت؟

- هيـــه، عصام مسكين موت، أنا ما يصير كلّم الحين..

- تكلم دلوار منو عصام؟

- حرام مدام أنا ما يبي كَلَّم، بس هذا عصام موت وما يدفع فلوس حق أنا، اتنين شهر ياخد شاي وقهوة وما يعطي فلوس. والحين موت، شنو يسوّي أنا؟؟ أنا يبي فلوس يدفع حق كفيل، عشان يسوّي إقامة حق شاندرا، والله حرام أنا حرام.

بقي من عصام قصاصاتٌ متدرِّجةُ الألوان، تتضح بها ذاكرة الآخرين. وأنا لا أذكر شخصاً باركْتُ له وأكلْتُ من كنافة مولوده الأول، وبمعيَّتِهِ أُنقِذْتُ من ورطة المواصلات، رجلٌ دَيِّنٌ بشهادة أبو حسن، مات وفي ذمَّتِه دَيْنٌ لدلوار!!

صفوان شابٌّ بدويٌّ شهمٌ وذو فزعةٍ في النوائبِ والملمَّات، ثرثارٌ وإجاباته لطالما أزهقَتْ صبري لأنَّها تفيضُ عن حاجة السؤال:

- عصام...!!

تهدّج صوته، وبكى.

احترمْتُ اللَّحظة، صَمَتُّ.

- عصام يا مدام سافر لمصر على أساس يطمئن على والده المريض، مات الشاب بجلطة (بكاء) كان والده في العناية المركّزة،

ركضت لمّيت كم فلس لمساعدته، على نفس لوحة الاعلانات علّقت الورقة بيدي هاتين، ذهب الخطي ليعين والده العجوز فمات هو وبقي الأب عايش (بكاء) اللّهم لا اعتراض على حكمك يارب!. أتذكّر شجاراً وقع بيننا ويحترق قلبي ندماً. كنا يومها نتناقش في السِّياسة، ومثل ما تعرفين أنا قلبي على لساني، لم يهن عليه أن أقول بأنَّ الانتخابات المصرية الأخيرة تضليل لشعب كامل، عايرني بأن الحكم لدينا اعتمد التوريث مخالفاً النظام الجمهوري، وعَلِقنا. (بكاء) كدنا نتعارك بالأيدي لولا الشباب هدّونا، وبوّسنا شوارب بعض. قال لي إني محقٌّ برأيي ولكنَّه مذ تغرّبَ أصبح حسّاساً تجاه أيّ مساس ببلده حتى وإن كان حقيقياً، قلت له يا أخي الحال من بعضه وتصالحنا. من يومها ما تركته، المصريون دمهم خفيف وأنا حبيت هالإنسان، كان أخاً لدنياي في هذا المنفى (بكاء)..

تركْتُ صفوان في نواحه وغرسْت وجهي في شاشة الكومبيوتر. سيأتي يومٌ أضيع فيه بذاكرة أحدهم، ستتلاشى سيرتي وصورتي، ولن يبقى مني سوى أحداث متفرِّقة عرضةً للتَّحريف والنسيان.
أطلقْتُ أصابعي في ريح الأحرف أخطُّ ورقة نعيٍ لذاكرتي.

نسيت التاريخ!!

شَجَاعة

يوم هزَّتْ سريره بيمناها لم تتصوَّر أنَّه في يوم قادم سيُزلزل عالمها بيسراه. وحين بلغَتْ بها قسوته ذروةَ الانتقام، أخرجَتْ صندوقَ الألعاب والسَّرير الصَّغير وشنطة ثيابٍ مكويَّة، ونادَتْ البوّاب..

أدبٌ نسوي

بأوراق الصَّحيفة اليوميّة تمسح زاهرة نوافذ الغرف ومرايا الصّالون وزجاج المائدة. تتوقَّفُ للحظةٍ تفرد قطعة الورق المعجونة بيدها، إنَّها صفحة التسالي. اليوم أيضاً يخطئ المعتوه الذي يكتب الأبراج، ويخبر مواليد برج الدلو بأنَّ القمر في مدارهم وأنَّ الصَّفقة رابحةٌ وأن حباً ما في الطريق!.

يتوتّر صوت طقطقتها للّبان رتيبا وعاليا كلَّما انهمكت في التنظيف. اليوم الثلاثاء، وكلُّ شيءٍ يجب أن ينتهي قبل أن يبدأ مسلسل الراديو "حكم العدالة". منذ خمس وعشرين سنةً تتفرّغ تماماً قبل الواحدة والنِّصف لتُنصِتَ بتركيز إلى حلقات البرنامج المُعَدَّة من ملفّات القضاء.

لزاهرة طقوسٌ تضفي على حياتها نكهةً خاصّة. يفرك صباحها عينيِّ الضوء على صوت فيروز. تلتهم منقوشة زعتر بهدوء في طريقها إلى السُّوق. سالكةً طريقاً أبعد ريثما تكون السيّدة وهبي قد أفاقت وأعدَّتْ قهوتها واتَّخذَتْ مجلسها في الشُّرفة. تدعوها دوماً فتستجيب لتكسرا معاً حدّة وحدتهما. في طريق العودة يكون

"هاجوب" فتح ورشة الصّاغة، تحبُّ أن تبدأ يومها الطويل بمتعة النّظر إلى أساور الذهب. تلتقط الجريدة من أمام الباب، تتصفَّحُ الصَّفحة الأخيرة وهي تلمُّ شَعرَها ككعكةٍ تحت منديل، ثم تبدأ العمل. ولأنَّ الفوضى أمرٌ نادر الحدوث في بيتها؛ يفيض الكثير من الوقت يوميا، فتخصِّصُ بعد الغداء ساعةً كاملة لتنقية أذنيها بصوت أمِّ كلثوم. تُسندُ ذاكرتها بالسَّبابة وتربِّتُ على فخذها طرباً باليد الأخرى. قليلاً وتفتح دفتر الحساب لتكتُبَ بدقَّةٍ في أي اتِّجاه ذهب كلُّ قرشٍ من معاش المرحوم. عندما تشارفُ الشمس على المغيب، يحين الوقت لاستهلاك بعض الكهرباء، فتشعلُ لمبةً واحدة، وتتابع كتابة قصة حياتها.

كان أملها في إصدار هذا الكتاب كبيراً، فكلُّ لحظةٍ عاشَتْها بدت لها أمراً شديد الأهمية. طفولتها في الحيِّ القديم، شبابها وضياعه مع رجلٍ كبيرٍ في السن، وحيدها الذي كاد يُزهِقُ روحها أثناء الولادة، والمكائد التي حاكتْها نسوة العائلة لحرمانِها من الإرث، واضطرارُها للعمل كمدرّسة لتعيل ابنها، وتخرّجَه، وتزوّجَه، وتودّعَه مهاجراً، انهيارُها في غيابه، والاكتئابُ التي أودى بها إلى المستشفى، ثم تأقلُمُها مع الوحدة، وأخيراً الوحدةُ بكلِّ تفاصيلِها.

عندما تحدَّثَتْ عن هذا الحلم أمام ابنها في زيارته الأخيرة، لم يزدها استخفافُه إلاّ تصميماً على تنفيذ المشروع. فوجود مشروع بحدِّ ذاته في حياتها منحها قوةً وصلابةً وأملاً. وجدَتْ نفسها، لأوّل

مرّة، تنتقم. تصدُّ ابنها وترفض بعنفٍ رغبته في بيع البيت. أضافت إلى نصِّها الطويل هذه الحادثة التي جاءت منعطفاً للأحداث الرَّتيبة.

لاحظَتْ أنَّ قصَّتها وحدها لن تملأ العدد الكافي من الصَّفحات، فبدأت تحكي قصص الآخرين. وفي ذلك وجدَتْ عزاءً كافياً. عندما ازدادت سماكة الصَّفحات انتابها خوفٌ من أن يشارف الحلم على النِّهاية، فقرَّرَتْ تزوير أسماءٍ وإفشاء أسرار كانت حتى ذلك الحين بعيدةً عن متناوَلِ القلم. اختلطت الحقيقة بالخيال واتَّسعَتْ دائرة الخصوصيّة. وأصبح النصُّ معجماً لأسماء الناس وحكاياتهم.

كانت زاهرة تكبُرُ مع الكتاب، ويتفرَّع المشروع وتنبُتُ فيه أحلامٌ صغيرة. في كلِّ رمضان تتمنّاه مسلسلاً من ثلاثين حلقة، وتختار أفضل الممثِّلين أبطالاً للأدوار. فيه كانت تتنفس، ولأجله تصحو باكراً كلَّ صباح وتنهي طقوسها كاملةً. ولإكماله تساهلَتْ في استهلاك الكهرباء، وتوغَّلَتْ في سهر اللَّيل لتجد وسيلةً للرَّبط بين أجزائه المفككة.

خفَّفَتْ من سرعة مشيتها حين اقتربَتْ من الحيِّ الذي تتكاتفُ على صفَّيه دور النشر. تحتضن الظرف الأصفر الكبير، ويتلاشى حماسها مفسحاً الإحساس للخوف والرِّيبة. لن تحتمل رفضاً أو سخرية. ستضحِّي بحساب التَّوفير إن لزم الأمر، فليس في مستقبلها سوى حلم.

باكراً وبعد الطقس الفيروزي، ازدردَتْ منقوشة الزّعتر في طريقها إلى السوق مختصرةً المرور بالسيدة وهبي، لذا كانت ورشة "هاجوب" مغلقةً عندما وصلَتْ إلى البيت. في صفحةٍ داخليّة أشرقَتْ صورة الغلاف. أغشى الخبر عينيها فأدمعَتْ، وبالكاد ميَّزتْ اسمها بين بضعةِ أسطرٍ في زاوية إصدارات. بضمَّةٍ قويَّةٍ عجنَتْ جريدة اليوم، قصَّتْ الخبر وبروزته. طقسٌ طارئٌ اقتحم النَّهار لساعات، فتراكم غبارٌ طفيفٌ كمسحةٍ مباركة. غرقَتْ تُصحِّحُ بقلم الرَّصاص أخطاء الرِّواية المطبعيَّة.

من بعد الظهر حتى مشارف الفجر، نبشت بحماس تربة الذَّاكرة، باحثةً عمّا انزلق في مصارف النّسيان. انفتحت بوابةُ الرّوح وانهمكت في تأليف كتاب.

١٩-١٠-٢٠٠٤

أشياء

وحدها سلطةُ الأشياء الحميمة تكفلُ للإنسان حريَّته في التخلُّص منها. لذا عرضوا القديم للبيع بثمنٍ زهيد، فتهافَتَ الفقراء تلمعُ في عيونهم بروقٌ جديدة.

رحلةُ سلَّةِ المهملات

ركني هو الأقل ضوءاً في المكان، ومنه استوعبت كلَّ شيء.
حياتي امتلأت بالإثارة وهذا عكس ما يعتقده البعض، الأوراق، الأغلفة، القشور والمناديل. ومَنْ يقضي وقته مشغولاً بمحتواه، يصعب عليه أن يجد لحظة فراغٍ للاهتمام بالتُّرَّهات.

أَنحَدِرُ من أصل عريق، فمسقط رأسي ضفةُ نهرٍ تاريخيٍّ في الشَّرق الأقصى، وأنتمي لقبيلة القصب المرتحلة أبداً حيث وُجدَ الماء. تشابكَتْ ملامحي بيديِّ فتاة غايةً في النعومة، انكبَّتْ عليَّ ذاتَ صباح وحدَّثَتْني بصمتٍ عن عاشق يعذِّبها. أصابعها الطَّريَّة دغدغتني بخفَّةٍ وبراعة فاستسلمْتُ لحِنْيي وثَنْيي وشَبْكِي ببعضي، ثم وضعتني وحدي في زاويةٍ بعيداً عن كومة السِّلال، فعرفْتُ أنَّني خرجْتُ شيئاً جميلاً.

بدأَتْ رحلتي على ظهر حمارٍ قطع بي مسافةً غير قصيرة إلى كوخ على تلَّةٍ خضراء، كقطعةٍ من جهاز العروس. أمام فرشةٍ متواضعة طفحتُ بعقودٍ خرزٍ ملوَّن وأساور خشبيةٍ مطليَّةٍ بمحاكاةٍ متقنة لرقشاتِ جلود النُّمور وتموُّجاتِ جلودِ حمير الوحش.

عاملتني العروس البسيطة كسلّةِ نفائس. ابتسامتها الواسعة، وهي تختار زينتها كلَّ مساء، كانت تشرح قلبي وتفتنني، قبل أن تغرَقَ مع عريسها في الغرام.

عندما جاء المولود الأول، لم تعد الحياة في الكوخ ميسَّرة، فتم بيعي لتاجرٍ لم أر وجهه، وانتهى بي المطاف مع سلالٍ أخرى على متن باخرةٍ تسير باتِّجاه يابسةٍ على الطرف الآخر من الدنيا.

مازالت رائحة الموانئ تفوح منِّي كلَّما هبَّتْ ذكرى البحر. عوملنا بقسوة بالغة، ورُمينا من يدٍ إلى يد إلى سطحِ عربةٍ سارتْ بنا وسط ضوضاء مزعجة. وقضينا شمسين وقمرَ في مخزنٍ رطب كاد يتفسَّخُ فيه قصبي الأنيق.

تحت شمس حارقة على رصيف مدينة، وقفنا بانتظامٍ استعراضيٍّ أمام أعين المارة. ولأنني كما أسلفْتُ حبلى بالذكريات، كنْتُ أولَ سلّةٍ لفتَت الأنظار، وصفقةً صباحيَّةً مبشِّرة لبائعٍ تعس.

أخرجتني يدُ عجوز من الكيس، ورصّت بداخلي كراتٍ صوفيةً كبيرة. أمام التلفزيون كلَّ مساء، كانت خيوط الصُّوف تتسلُّ ببطءٍ خيطاً طويلاً إلى أن فرغْتُ في الشتاء. فردَتْ العجوزُ في داخلي كيساً وحشَتْني بعُلَبِ الأدوية. في أحد أيام الربيع، جاء أشخاصٌ كثر ناحوا قليلاً ثم أخذوني مع أشياء أخرى ورحلوا.

لم أتخلَّص من قنوطي وغمِّي إلاّ حينما زُرِعْتُ في زاوية غرفةٍ ملونة، وجاءت طفلةٌ صغيرةٌ لها شعرٌ خفيفٌ أجعد بلون النّار، وخلقَتْ حولي عالماً سعيداً. كنْتُ أتحوَّلُ بين يديها الصغيرتين أشياء كثيرة مسلِّية. تجهِّزُ بي لوازم نزهةٍ خياليّة، أو تضعُ على قاعدتي المقلوبة الفناجين لاستقبال ضيوفٍ من الدُّمى، أو تدحرجني ركلاً بقدمها الصغيرة التي لم تكن تؤلمني أبداً، أو تحشر فيَّ جسدها الصغير لتختبيء من وحش الخزانة، حتى غفَتْ يوماً في حضني وهي تشعر بالأمان.

الأيام السَّعيدة تمضي بسرعة، هكذا كان جدي النَّهر يتحدَّثُ الحكمة، والجريان يمشِّطُ لحيته المديدة. في كنفه كنّا نتمايل على صفيرِ الرِّيح يتلاعَبُ في جوفنا، قبل أن تجتثَّنا حاجةُ الإنسان. كانت وصيته الأخيرة: "ليس الأجوفُ دوماً بلا فائدة". أتذكَّرُهُ كلَّما ملأتني الأشياء فأتفانى في الاحتواء.

الأيام السَّعيدة تمضي بسرعة، لذا أفرغتْني الصغيرة من الألعاب وحشَتْني بأدوات تزيين تفتَّتَتْ في داخلي، ولوَّثتني بأصباغها كما لطَّخَتْ وجهَهَا، إلى أن رمتْني بجحودٍ تحت طاولة، فصرْتُ من يومها سلَّةَ مهملات.

بعد ليلة صاخبة، قضيتُها أرقاً على ضجيج احتفال، حزمَتْ الفتاةُ في الحقائب كلَّ شيءٍ سوايَ، حتى الدُّمى الخشبية والوسائد، ورحلَتْ بعيداً. سطع الفجر واهناً على وقْعِ خطواتٍ غريبة، أَنْصَتُّ.

فُتِحَ الباب، ومعه هبَّتْ رائحة النَّهر والغابات ونسائم كوخ فقيرٍ عَبِقٍ بأجسادٍ فتيةٍ متعبة، تمارسُ الغرامَ وتحوكُ من القنّب سلالاً جميلة.

لأوَّل مرَّةٍ أتمنّى لو أنَّ لي القدرة على الحركة، لأتبيَّن هُويَّة القادم. انحنَتْ تحت الطاولة، ولأوَّل مرَّةٍ أتمنّى لو بقي فيّ جوفٌ لم يَبْلَ لأشهقَ فيه ردّةَ الروح. يداها يابستان، وسواد عينيها القديم مركبٌ يُبحِرُ في بياض واسع. مدَّتْ كفَّها سحبَتْني من ركني المظلم ورفعَتْني إلى النُّور. شقَّتْ دمعةٌ طريقها إلى فمها، واحتضنتني..

حملتني في آخر النَّهار وفي جوفي أجرُ يومٍ وصرّةُ طعامٍ دافئة.

٢٠٠٥-١٢-٥

ترويض

ليتعوّد فكرة الآخر وقف أمام المرآة يردِّد:

الآخر، الآخر، الآخر، الآخر، الآخر، الآخر...

خرجَ الآخرُ من المرآة منزعجاً وصوَّبَ إلى قلبه شظيَّة.

أنثى النَّقيض

كانت صفعةً على أمِّ وجهي، صفعة بكفٍّ جلديٍّ تخرج منه مخارز بشاعة العالم بكلِّ ما فيه، حتى أنا!!! ظلمٌ واختلال، قسوةٌ ووجع.

تمزَّقت روحي لرؤيتها، وكنتُ أفكِّر من قبل "غريمتي، مهما بلغَتْ مواجعها". أهي مصابةٌ بسرطان ما، سلّ، قصور في القلب؟!. رفضْتَ إخباري بإصرارٍ واكتفيْتَ بحبٍّ تدفَّق جارفاً مع البوحِ دمعةً حقيقية.

هي أنثى ولها عليَّ حقُّ الغيرة والمعاملة النِّديَّة. أفكِّر بأنَّ صوتك يوماً داعب أذنها لساعات، فتشتعل وساوسي مشكِّكَةً في أنَّ ما بينكما قد انتهى. وإن رنَّ اسمها في أذني بحديثٍ عابرٍ شنَّفْتُ سمعي وتأهَّبْتُ لتصويب طلقة نميمة. لم يعرف أحد ما الذي ألمّ بها، وحولها ضَربَتْ هالةَ سرِّيَّة، وأنت نصبْتَ خيمة وفاء.

مذ حدَّثْتَني عن حبِّك الوحيد لفتاة مريضة، أحاولُ الإمساك بخيوط الأعراض لأحسن التشخيص وأُطلِقَ على الداء إسماً. كانت الخيوط مدهونةً بالشَّمع، تنزلق من بين أصابعي وتفلتُ كلَّما قبَضْتُ على أوَّلها، فأسقط في هوَّة البداية فارغة اليدين. لم تكن لديكَ نيةٌ

في تعريةِ روحيكما، احتفظْتَ بشهامة بالتفاصيل. وأنا، عرفْتُ أنَّ التفكير بشبح من الماضي يحترف الاختباء والتَّواري ضربٌ من العبث. فاكتفيت بأنَّكَ معي وروّضتُ شيطاني على التَّناسي فتباعدَت المسافة بين نوبات هواجسي بكما، إلى أن نسيتُها تماماً.

ثم رأيتُها

فسقطْتُ في خواءِ روحي..

حين الله منحني وجهاً شهيَّاً، لا وجه طفلة ولا وجه امرأة. الشَّقيُّ فيه يراوغ البراءة، والجمال يلملم كماله من أبعاده المتنافرة. وكوَّنَني جسداً كمعجون الرَّبيع لا بالحارِّ ولا بالبارد، لا بالجافِّ ولا بالمبتل. ووَهبَني عقلاً كشبكة صيد، لم يخرج يوماً من يمٍّ خائباً. ونفخني روحاً راقصةً كعناقاتِ العاشقين، تَجِدُ دوماً مَنْ تدغدغه ليصفِّق لها.

ماذا أريد؟

لماذا أبكي وأنا عرفْتُ الحبَّ وأريد المزيد، وعرفْتُ النَّجاح وأريد المزيد، وعرفْتُ الصّحَّة وأريد المزيد. أتذمَّرُ كلَّ ليلة وأبكي باحثةً عن مرآة..

لماذا لم أرني؟

سأسجُدُ الآن..

كان لديَّ الكثير من الدنيا وركضتُ طويلاً لأصل إلى...

لا أعرف إلى أين!! نَحوَكَ، ولم أعلم أنك تخبئ لي تحت العشب هوَّة مفاجأة.. لم تخبرني.

نزَلْتُ عن منصَّة التَّتويج وذهبْتُ إلى دعوةٍ خيرية. أجرُّ ذيل

وشاح عنفواني وكبريائي كأسطورة. أرتدي الأسود اللمّاع، كلقطةٍ تلسكوبيَّة لجرمٍ سماوي، وشَعريَ المُحمَر يتدلَّه كشُعَبٍ مرجانيٍّ حيّ.

كتحفةٍ في مهرجان الذَّهب تفرَّسَ الجميع بي، وأنا أُطلِقُ طواويس التَّباهي ضاحكةً لاهيةً ولا يهمنُّي أحد.

ستأتي!! سمعتُهم يتهامسون، فاستنفرت أنوثتي أسلحتَها على حدود النَّظر. الاسم الذي أعرفُه، والحكايةُ التي أفلتَتَ منكَ تحت ضغط فضولي:

- احك لي عن حبِّ حياتِك.

- أنتِ، حبُّ حياتي.

- لن أصدِّق أنَّني الأولى، بغنَج داعبْتُ أذنك. لكنَّني سأعملُ على أن أكون الأخيرة. أردفْتُ بثقة.

- لا تنبشي في الماضي.

- الماضي!! هذا ما أريد سماعه.

استسلمتَ لي.

العجلاتُ الأماميةُ دخلَتْ القاعةَ أولاً. هرسَني الألم. وَقَفَتْ دقيقةً وتركتْنَا نستوعبُ المشهد، وبجبروتٍ رهيب امتصَّتْ صدمَتَنا. استعادَتْ أنفاسها، وتوجهتْ للحضور بسلام الأقوياء. لم أر في حياتي امرأةً منهكةً إلى هذا الحد قادرةً على التَّظاهر بمثل هذا الثَّبات. توجِّهُ سهام الهجوم دفاعاً قبل أن تقضي عليها سهام الشَّفقة هجوماً. هي التي تركتْ في روحك أثر الحبِّ إلى الأبد، بحنكةِ أنثى جعل منها المرض جدَّةً حكيمة!!

- عرفتُ معها تباشير الحنان، وشَفَتْ روحي من قسوة الدنيا.

قلتَ كمتصوِّفٍ يسبح في ملكوت سماوي.

ثبتُّ عينيَّ في عينيها لأتيقَّنَ أنَّها مَنْ شيّدت في قلبكَ أبراج الحنين الأولى وأسرَتْني، فهربَتْ بهما إلى وجوه الآخرين. أكانَتْ تعرفُ قصّتَنا، فأتَتْ لتدفعَني إلى الأسفل؟؟

حاولتُ الصعود بكلمةٍ ارتجلتُها عن مساعدةِ ذوي الاحتياجات الخاصّة، فاسترجَعتْ مِنْ حولي دائرةَ الاهتمام، وبانفعالٍ ألقَتْ خِطابَها عن الإعاقة كحافز للتَّحدِّي والحياة. تعلَّقَتْ بها أسماعُ الحضور، وساد صمتهم إكراماً للتَّجربة.

لم يكفِني كلُّ تسامح الإنسانيَّة لأغفر لأنثى فَقَدَتْ كلَّ أمل وامتلكتْكَ. اعترفْتَ لي بلسانِكَ، كُنْتَ تحبُّها، ودمعةٌ مسحتُها بأصابعي عن جفنيكَ كانت سيِّدة الأدلَّة:

- لو لم تَخَفْ عليّ من التَّورُّطِ في حياتها المستحيلة لتبعْتُ روحَها الطائرة أينما حلّت.

سأرتمي معكَ إذن تحت عجلات كرسيٍّ متحرِّكٍ لأنتشلك من ذكرى حب. سأقضي عمري أختالُ كأنثى بغيضة تملكُ كلَّ شيءٍ ولا تملكُك..!!

استشطْتُ غيظاً، وبدأتُ ألقي نكاتاً مجنونة لألفِتَ إليَّ الأنظار.

٣-٤-٢٠٠٦

خُلاصة

القناعــةُ كنزٌ لا يَفْنَى، لا يُفْنِي، لا يَفْنِي، لا يُفَنِّي، لا يُغْنِي، لا يَغني..

اللُّغة بحرٌ كبير، وبدت له العبارةُ جائزةً كحكمةٍ بعدد احتمالات الأحـرف والحـركـات. لكنَّ النَّتـيـجـة كـانت واحـدةً في كلِّ مرَّةٍ عـزّى نفسه بترددها...

سيبقى فقيراً!!

سكّان الطّابق العاشر

بعد صباح الخير، يأتي مصطفى وفي فمه قصة:

منذ انتقالنا إلى سكننا الجديد نحاول كعادتنا أن نبدو لطفاء مع الجيران. تاريخنا حافلٌ بالتّقلّات، ومشرِّفٌ في عِشْرة الآخرين. نحن لا نزعج أحداً، وأنتَ تعرف، زوجتي وأنا من بيئةٍ محافظة. وهذه العمارة تناسبنا، كلُّ سكانها عائلات، وكلُّهم موظفون. مُرَّ أمام عمارتنا صباحاً فلن تجد سيارةً في الموقف، عند التاسعة مساءً يبيتون ويستكينون. أولادهم أيضاً مهذَّبون، إلى اليوم لم نسمع مفرقعاتٍ أو صيحاتٍ بذيئة كتلكَ التي أجبرتْنَا على تغيير سكننا آخر مرة.

يتَّصل مصطفى بالمستخدم طالباً فنجان قهوة ويتابع دون أن يأخذ نفساً:

هل تعرف ما الذي يحيِّرني ولا أجد له تفسيراً؟؟ أحياناً تتعثَّر بجار يأخذ منك موقفاً معادياً، هكذا بدون سبب. تُلقي السَّلام فيرد بجفاء. تبتسم له فيدير وجهه النّاحية الأخرى. يتحيَّن الفرصة ليستغل موقف سيارتك في غيابك، فتضطر لركنها بعيداً حفاظاً على حقوق الجيرة. أو يصفُّها وراء سيارتك ليسدَّ عليك طريق الخروج. تقوم صباحاً تشغِّل سيارتك، تُطلق زموراً تنبيهيَّاً بسيطاً،

فيُطنِّش. ترسل له الحارس ليوقظه فيتأخَّر. ينزل بعد وقت ووجهُهُ مغطًّى بالاستياء، تبادرُ بلطفٍ: ما تآخذنا يا أخي لكنَّكَ تسدُّ علينا.. لا يرد. يتمتم بين أسنانه شيئاً ويزيح سيارته دون كلمة إعتذار. تقولُ لي: قليل ذوق! أقولُ لكَ: لا، إنَّه يفعل ذلك متعمِّداً.

مصطفى يسأل ويفترض الإجابة. لكنَّ ما يقوله ينطوي على الكثير من حقيقةٍ لا تخفى على مَنْ عاشره طويلاً. دماثته، سعيه الدؤوب ليكون محبوباً، والأكثر، انتقالُهُ المتكرِّر من مسكنٍ لآخر رغم التَّعب والمصاريف رغبةً في العثور على مكانٍ آمن لا يصطدم فيه بأحد. أجده موسوساً بالكمال وناشداً المستحيل. يكرِّر دوماً:

- الجنّة بلا ناس ما بتتداس..

- إذن لا تعذِّب نفسك في البحث، إما احتمالهم أو اذهبْ لتعيش وحيداً في جزيرةٍ منعزلة.

لا يقتنع مصطفى.

في بلدٍ كالكويت صرنا نعرف معادن البشر وجنسيَّاتهم من أشكالهم، ومن الرَّسائل التي يقرِّرون أنَّها ستعرِّفُ عنهم للمحيط. عَلَمٌ معلَّقٌ على مرآة السيَّارة، عباراتٌ مكتوبةٌ على أبواب الشّقق، أزياءٌ تحدِّد المكان الذي أتوا منه وأكثر، أزياءٌ تشي بانتماءاتهم الدينيَّة أو الطائفيَّة. وهكذا تحدث الأمور، يعرف المتشابهون بعضهم بعضاً ويحافظ المجتمع على تكوينه جماعاتٍ جماعات، ويتَّخذُ كلُّ واحدٍ موقفه من الآخر ما أن يتلقَّى الرِّسالة.

- أنا خائفٌ من أن أضطر للبحث ثانيةً عن مسكن.

- لم يمض على انتقالك ثلاثة أشهر!!!

أضعُ يدي على خدِّي ناظراً إليه باستنكار!

يا أخي، بالكاد أتفهم طبائع العرب فكيف تريدني أن أتفَّهم الأجانب وخصوصاً إذا كانوا سكان الطابق العاشر. يصادف أن ألتقيهم يومياً في المصعد، أمٌ وأبٌ ولديهم رضيع يأخذ العقل. ماشاء الله، أبتسم وتبتسم زوجتي للصغير. فلا تتحرَّك عضلة في وجه الأبوين. ننحرج وننتظر بفارغ الصَّبر الهبوط إلى الأرض. قرَّرنا ألاّ نداعب الصّغير مرةً أخرى. تعرف، ربما يخشون عليه الحسد ونظر العين. معهم حق، ولدٌ مثل نقطةٍ بمصحف، وجهه طافحُ الوجنتين، أبيض مثل القشطة ومورّد كزهر الدرّاق. صرنا نصادفهم، نهزُّ رأسينا على استحياء ونتشاغل بمتابعة سهم المصعد إلى الأرض.

المشكلةُ الأكبر أن عمارتنا مبنيةٌ بدون عوازل، يعني كلّ حركة تترك في إثرها الكثير من الصدى. نرتدي خفَّافاتٍ ليصير مداسنا ناعماً. اشتريتُ قطعاً فلينيَّةً ألصقناها أسفل أرجل الطاولات والكراسي، وسجاداتٍ مددناها فوق كلِّ مساحة عارية من البلاط، فأبسط الانزياحات تصدّعنا ونخاف أن تصدِّع رؤوس الآخرين. ولكن، هل كل السكان يفكرون مثلنا؟

سيقتلنا الحرص يا أخي. نتحمَّل الضجيج المنبعث من فوقنا، كرَّاجة الطفل وقرقعة مكنسة الكهرباء يومياً في ساعة القيلولة. ما أن نتمدَّدَ حتى تبدأ الأصوات بدون رحمة، خرخشةٌ ودبيبٌ فوق سريرنا تماماً، تقول قلة ذوق؟ أقول لك: لا أعرف إن كان ذلك متعمَّداً، ولكن على الأغلب، إنَّه ذنب العمارة المبنيَّة بدون عوازل.

بعد عدَّةِ أيَّام جاء مصطفى مهموماً، يكاد وسواسه يقتله. في السّابق كان يقطن في الطابق الأوّل، ويأتي كلَّ يوم متذمِّراً من تمديدات البناء الخربة والتي تجعل من شقَّتِهِ مصرفاً لمياه الآخرين الآسنة. شاكياً صراعَ الهوارين على قطط الحي ومواء التزاوج المزعج تحت نافذة غرفة نومه والذي يتحوَّل في هدأةِ اللّيل إلى صراخ. ثم انتقل إلى عمارة أخرى تفوق السيارات فيها عدد السُّكان، وفي غداته وعودته كان يحكي لنا عن ضائقة المواقف وما ينشب جرَّاءها من شجارٍ بين الجيران.

حديثُه اليوم يخالف البِشرى التي زفَّها عند عثوره على هذا السكن:

- بناءٌ جديدٌ ونظيف، ما أن ولجته حتى رأيت الحارس ينظِّف المدخل بالماء والصابون. يبدو أنَّ كلَّ السُّكان في غاية الاحترام، حكى لي الحارس، عائلاتٌ محترمة. وتعرف، أنا غيَّرت سكني الأول بعد أن اكتشفْتُ شقَّةً لعازبٍ تُدار فيها أعمالُ الأنس والصهللة. يدخلون بحالٍ ويخرجون بأحوال، اللّهم عافنا واغفر لنا وارحمنا. هذه العمارة مسورةٌ بمواقف السيارات، تقابلها فسحةٌ ترابيةٌ لعمارةٍ مهدَّمة، يعني لو أتيت عندي ستجد براحة موقفاً لسيارتك. والأهم لن تصدِّق، في الدور التاسع، يعني سماءُ الله وجارٌ في العاشر ثم أنا.

ذكّرتُ مصطفى بكلامه لأخفِّفَ عنه، وألقيْتُ عليه موعظةً عن التعايش. ثرثرتُ قليلاً حول مصائب عمارتي التي أقطنها منذ ثمانية عشر عاماً، عن أجور الشقق المرتفعة باضّطراد، وعن عبثيَّة انتقاله المتكرِّر، وختمْتُ بنكتةٍ تغلق الحديث لنلتفِتَ إلى أعمالنا: غداً يفتحون جمعياتٍ سكنيةً في المرِّيخ ونسجِّل اسمك أول اسم.

لم يضحك مصطفى، ونظر إليَّ نظرة بؤسٍ مقرِّباً كرسيَّه من مكتبي، كأنَّه سيعلن الأخطر وهمس: عندهم كلبٌ.

كتمْتُ ضحكتي فتابع:

في يوم من الأيام فتحْتُ الباب قبل أن يحترق الجرس، دخلت أختي تغالِبُ لهاثها: انفتحَ باب المصعد ودخل كلب..!! قلت لها: أيّ كلب ليس في عمارتنا كلب! بحلقَتْ بوجهٍ بلا لون: هناك كلبٌ فوقك تماماً، في الطابق العاشر.

كلُّ من زارنا في الآونة الأخيرة كانت له حكايةٌ مختلفة عن كلب. كلبٌ ضخمٌ بعلوِّ حمار ولطافة دبِّ الرُّسوم الكارتونيَّة. واختلفَتْ ردود الفعل:

- ما ألطف جيرانكم لديهم كلبٌ جميل، بدَتْ عليهم السعادة ونحن نلاعبه!!

- كوم حجار ولا هالجار!!

- صادفْنا كلباً رائعاً من نوع لابرادور غالي الثمن.

- أحضرا لي شربة ماء قبل أن يتوقف قلبي من الخوف، طلع لي كلب!!

هل تصدِّق؟؟ كلبٌ لا يعوي؟؟ لو أنَّه نبح نبحةً واحدةً لاهتزَّ البناء من صداها. لكنَّني لم أكن سمعت له صوتاً ولا رأيته. تعجَّبْتُ كثيراً، وبدأت أرصد جيران العاشر لأقبض على صورةِ الكلب الذي سبقه صيته.

بدهشةٍ رفعْتُ يدي مقاطعاً مصطفى:

- إذا كان الكلب أنيساً أليفاً ولا ينبح فما الذي يزعجك؟؟

احتد مصطفى: الكلبُ نجسٌ واقتناؤه لغير الضَّرورة لا يجوز شرعاً. نعيش في بناءٍ حديث، بالكاد تكفي شققه سكانَها من البشر.

لم يقنعني كلامه وبقيت أداوره بصبر لأهدِّئ فورته غير المبررة. فالكلب لم يصادفه ولا يشكِّل إزعاجاً بصمته، كافٍ خيره وشره، متآلفٌ رغم ضخامته مع ضيق المكان، وكثير من الناس يخافون حتى أكثر الحيوانات إلفةً لأنهم لم يعتادوا معايشتها!.

يبدو أنَّكَ لم تفهمني، يقاطعني مصطفى وقد بدا جاداً وقاسياً ومكشّراً. اجتمع الفقهاء على نجاسة لعاب الكلب، والإمام أحمد ابن حنبل يقول: "إذا ولغ في الماء أريق وغسل الإناء، وملامسة لعاب الكلب تنقض الوضوء". هل تقول لي ما الذي سأفعله إن مدّ هذا الكلب اللعين لسانه في المصعد صدفةً ليلعقني؟ هل تقول لي كيف سأهنأ في عمارةٍ نجسة بلعاب كلب يتحرَّك بحريّةٍ ولا تعرف من أين سيخرج لك دون نباح يدلُّ عليه؟؟ ثم إنَّهم لم يبتسموا ونحن نداعب طفلهم، فلا يتخيَّلوا أن أسترضيهم إكراماً لعيني الكلب.

نهض مصطفى بانزعاج، دون انتظار تعقيب مني، جلس وراء مكتبه، فتح جريدة السِّمسار العقارية وبدأ يقلِّبُ فيها بحثاً عن شققٍ للإيجار.

٢٠٠٧-١-١٢

طموح

لم يفُتْها أن تعدَّ السَّلالم في صعودها، مئتان وواحدٌ وعشرون، ثلاثمئة واثنتان، ثلاثمئة وأربع عشرة درجة...

حافيةً حَلُمتْ بأن تحققَ شيئاً فريداً، وعند الدَّرجة الأخيرة توقَّفَتْ تلهث، والشجرة المبروكة تبدو من وراء غشاوة التعب والعرق مغطاةً بالعصافير..

لكنَّ النذورَ لا تطير، وبقعُ الدَّم الجافّة لمِنْ سبقوها إلى هناك لم تكن وهماً..

مهمةٌ فاشلةٌ ملاك

ليس ثمَّة فكرةٌ واحدةٌ غيرَ الانتظار تقضّ مضجع جمودها الشارد. كسمكةٍ على بركة جليد، تحدِّقُ مفتوحةَ العينين. بين أربع وسائد محشوّة بحصى الأرق، تسند الجسد بوضعية قراءةٍ مزيَّفة، وبخامسةٍ تكمِّمُ أنين روايةٍ مُهملة مفسوخة الدفتين عند الصفحتين ثمانية وتسعة.

السِّتارةُ مسدلةٌ بوجه عين الظَّهيرة الحمراء، والسَّاعةُ مدفونةٌ بين أكوام الثياب، بطاريَّتها على الأرض، قذفتها على مرمى يدها بعد عودتها صاهلةً بانتهاء الامتحانات، كأنَّها بكسرها توقِفُ الزَّمن.

من سريرها، تراقِبُ عشَّ الحمامة، وحافَّة النافذة الملطَّخة بالأبيض المخضر. كان ثمَّة دودةٌ تتغذّى، وذكرٌ يأتي من حينٍ لآخر يزاحم أنثاه شرفَ احتضان البيض. وفلول الشتاء نَسَتْ أسمالَ غيمةٍ بائسة في عنق السماء.

طيلة أيام الدراسة ورسولتي الحمامة سلوتها وقدوتها. هديلُها في الصَّباح يرسل إشاراتٍ تتناغَمُ مع تكتكة الوقت. فتتجاذبُ معها أطراف النظر والصوت والحركة.

سأتركُها، لم يعد لديها دافعٌ لتنظيم حياتِها. مصيرُها مربوطٌ إلى ناعورةِ الأيام بانتظار النَّتيجة، والقطيعةُ مستمرةٌ بينها وبين النَّوم. كلُّ شيء على حاله، عدا اختفاء "كامل" الذي كان ذِكْرُهُ حاضراً والوقتُ يدوسها بعجلاته على إسفلت التوتُّر الساخن.

هذه الأنثى من أعقد حالات الحبّ التي واجهتني. قلبها خرسانيٌّ، وعقلها مجنحٌ، ولديها قدرةٌ زئبقيّةٌ على الإفلات سريعاً من قبضة المشاعر. حين ظننْتُ أنَّ مهمّتي أوشكت على نجاحها أخيراً، قلَبْتُ الصفحة الأخيرة من كرّاسِها وقذفْتُ بسهمي وسط قلب رَسَمْتُه. أوحيْتُ لها بكتابة اسمه مرّاتٍ عديدة كتعويذة حظ. وما أن حلَّقْتُ لثوانٍ بعيداً عن كتفيها حتى طَمَسَتْ اللعينة فوقه خربشاتٍ ساخرة.

لا أدري ما الخطأ الذي ارتكبْتُهُ هذه المرة، رغم أنني وضعت في طريقها "كامل". نموذجٌ لعاشق من طراز رفيع. تحيَّنْتُ مروره أمامها كذكَر حمام أنيق، بصدره المنفوخ وهديله المكابر. تعمّدْتُ اللّحظات بدقّة ليتهادى على نوافذ شرودها، مردِّداً كلاماً مدروساً عن مستقبل هادئ في عشٍّ صغير، يتقاسمان فيه حضانة البيض. تخلطُ السُّكَّرَ بالبارود، وترشرشُ فوق كلامِهِ أفكاراً تُعجزُه:

"أريد أن أضع بيضي دون ألم في مستشفى خاص. أجلس بفستان نوم أبيض من الدّانتيل محاطةً بسلال أزهار نادرة. يأتيني المباركون فأضيّفهم شوكولاتة فاخرة ومصاحف مذهّبة. سأضع بيضتين معاً واحدة زرقاء وأخرى ورديّة اللّون. أخرجُ من المستشفى دون أن أقلق على الحساب لأنَّه دُفعَ مسبقاً. ولا أهتم إن لم يتواجد

زوجي معي في تلك الظروف، ولم يصوِّر بكاميرا ديجيتال لقطات خروج البيض. لأنه سيكون وقتها في مكانٍ بعيد، يُشرف على عمّاله المسجونين في منجمٍ بين طبقات الأرض ليستخرجوا منه مالاً لي، أشتري به تذاكر سفر لأتسوق في روما، وأتمدد على شاطيء إسباني كشمسٍ برونزية".

أرفرفُ في قلبه، ليضحكَ على شطحاتها الطموحة، ويحوِّلَها بإنصاتِهِ إلى طائرٍ وديع، يُدارُ بمفتاح مغروسٍ في بطنه، طريقةٌ مجرّبة مع كلِّ النساء. يبدأ بالهديل مقدّماً عنقه بحركة مضحكة ليدفع مشيتَه إلى الأمام، برررررب برررررب برررررب. يقلِّدُ رسولتي الحمامة لتدبَّ في الأنثى الحياة فتطير إلى سطحه، وأنّى توجّه تتحوَّلُ إليه. أختار مقعداً في حديقة الجامعة وأنثرُ على العشب حبوبَ الرومانسيَّة المخدِّرة، أحني رأسه ليلتقطَها بنهم:

"فوق سطح إحدى البنايات سأحملُ الأعواد الصغيرة والأثاث المستعمل. تكونين بانتظاري وعلى ظهرك بيضتين بنيتين بلون الأرض. وحين أفرغ من بناء العش، أحمل عنك واحدة. لن نستقبل المباركين لأنَّ هذا تبذيرٌ وتفاخر، سنتابع العمل معاً. لن نحتاج أكثر من هذا لنعيش، وحين نسكن في الأعالي سيبدو كلُّ شيءٍ صغيراً في الأسفل، ولن تتفتَّح عيوننا على إغراءٍ كبير".

كان يجب أن يتحدّث كامل هكذا، ليطعن أحلامها الوثيرة بالواقع المدبَّب، ناتفاً ريش أجنحتها الناعم، غارساً في جلدها

حراشف الأصول الأولى. ليزحفا في علاقتهما كسحليَّتين لطيفتين. لم تواجهني من قبل أنثى ساخرة، وتعقَّدت الأمور أكثر من المرسوم. وأقبل الصيف وأنا محاصر بمباني المدينة. "إيندوبيد" اللعين، أخاله يضحك حتى يبيضّ سواده في المجلس الأعلى للملائكة؛ مستهزئاً بطريقتي التقليدية في الجمع بين رأسين.

فوضى الخارج كانت تنظّم الداخل. وسرعة التقاطها للمعلومات تتسارع طرداً مع احتدام الوقت وارتعاشات الخوف. أمدُّ يدي أسحب ورقةً بعينها بين مئات الأوراق المتناثرة أضعها بين أصابعها، فتهمسُ:

"يا نصيب".

تحفظها صماً، ثم أخرى فأخرى، ولا تتركُ شيئاً للصدفة!!

يخرج الطلاب من القاعة وأبقى وحدي مع المراقب، نتفرَّسُها بالتناوب مع ساعته بغيظ، وهي تفرغ رأسها في يدها فيخرج خطُّها طلسماً متعرّقاً كرسالة غريق. وفيما أدفع بالمراقب ليسحب الورقة مستخفّاً:" ما لم يطلع منكِ بثلاث ساعات لن تكتبيه بدقائق". تتسوّل المحنّكة منه برجاءٍ بضعَ لحظات.

أطيلُ صبرَ "كامل" في انتظارها، تعينني العصافير بزقزقتها والحديقة، ويحفر بمزاجه اسمها على جذع شجرة. تخرج مسرعةً من قاعة الامتحانات، تترك لوجهينا الخيبة، تتسلل من الباب الخلفي وتغادر، مخالفة كل توقعاتنا.

لم تكن حمامةً وديعة على أي حال، فلتذهب إلى جحيم آمالها الشرهة، ولتقع من أعلى سنام في صحراء خيالها.

حلّقتُ وحدي بين الكتب بروح أنثى، ضاربة الهواء بكفاءة عالية. احتجت قوةً أكبر من عضلات الذراعين، لتقويم اعوجاج ضلع قاصر يشدُّني إلى الوتد القديم. ولأثبت لنفسي أنّني أكثر نباهةً من أنثى نموذجية، تخلَّصتُ بسرعةٍ من كامل.

كسرتُ الساعة وبقيَتْ دقاتها اللعينة تلاحقني، كمجنونٍ يضرب رأسه بجدران جمجمتي، تك تك تك تك تك تك، دون توقف بنوبةٍ لا تهدأ. كرأس وليدٍ عنيدٍ يرفض الخروج، بقيتُ محشورةً بين فخذي الوقت طيلة شهر. أسمع لهاث الكتب كقابلة أُسقِطَ في يدها، وعلى بابها رجلٌ شرقيٌّ ينتظر ذكراً، ولن يقبل بأقلَّ من ذكر حتى وإن امتد مخاض الوقت سنةً أخرى. وكيلا أخيف الحمامة اللاجئة بنافذتي، تذرّعت بخرافة الطير والرزق والحظ، وتفاءلْتُ خيراً.

الفوضى تشوِّه المرآة. شهرٌ مضى والسكون يعمّ فضاء الحجرة. أزيح أكوام الورق والغبار وأخطِّطُ ذهنياً لترتيب الأشياء. أشحن طاقتي في الحفظ والكتابة حتى تضمَّ الساعة عقربيها عند منتصف الليل، ويتشنَّج جفناي أرقاً بفعل قهوةٍ ثقيلة. وبلا نوم، تبدأ الأفكار دفقها بابتكار عجيب. فكرةٌ مُحكَمة لا ثغرة فيها لتأليف رواية، نجاحاتٌ باهرة ترسم طريقها ممهِّدةً لدراستي في الخارج، يلتصق طموحي بمنصب رفيع، وبإنجاز بحثٍ خلّاقٍ في عالم الفن، فأستلم جائزةً عالمية لما قدَّمْتُه للإنسانية من حقٍ وخيرٍ وجمال. أقف على منصَّةِ استلامها أُلقي كلمةً بالمناسبة:

"أوه.. لم أكن أتوقع حقاً!! (دموع..) أشكر كلَّ من ساهم في إتمام هذا البحث، أهديه إلى.. إلى.. إلى نفسي وليعمَّ السلام أرجاء العالم (تصفيق).."

كنت أحتاج جوهراً للجمال، فمحوتُ من أجندتي الاحتمالات المصيريَّة الثلاثة الأكثر شيوعاً في المجتمع: أن أتقوَّس في مهنةٍ مكتبيَّة لأساعد كامل في مصروف البيت، أو يتداعى صباي كمطلَّقة رجل ثريٍّ فأنفض عن شهادتي الجامعيَّة الغبار، أو تبقى الشهادة بروازاً أنيقاً لأم متعلمة وزوجة مواطنٍ وفيٍّ وميسور لا يحبِّذُ عملَ المرأة خارج البيت.

التفكير بمستقبل كهذا يبعث على الغثيان، وكذا حديثُ كامل. يُغرقني بطوفان كلماتٍ بطيئة منتقاة من أغنياتٍ وقصائد مهترئة، بينما تغازل عيناي سيارةً فارهةً تمرّ لتسرق سمعي بمكابحها الحديثة.

لم أندم على خلاصي منه. استغرق الأمرُ شهراً من القسوة لكتابة النهاية. شهرٌ بالضبط بعد صدور نتيجة الامتياز. كالبشارة كان اسمي في لوحة الشَّرف، فزغردَت الكتبُ كقابلةٍ سحبت ذكراً للتو، وشعرتُ بالزهو كأنَّها أخرجت إلى الدنيا نبياً.

لا أردُّ على الهواتف ولا أطوفُ بممرَّات المواعيد حيث ينتظر. أخطِّط لمستقبل متطور، وأدرّب جناحي على المسافات البعيدة وعيني ترصد الشمس. النسيم يهبُّ عبر النافذة المفتوحة معطراً بالصابون.

.. والحمامة طارتْ إلى غير رجعة.

سنوات مرت قبل أن يخرج النص بهذا الشكل

وربما لم يكتمل بعد!

الجحيم

تمردَ بالصمت، حرمَهم من التفاصيل، أبقاهُم بعيداً عن خصوصياته. انصدموا، تعذبوا، تآمروا، وتداولوا أمرَه طويلاً..
حكموا عليه بالرجم حتى البوح..

قصة مثيرة للجدل

رغم لطف السيّدة عطاف وتصرُّفاتها الأنيقة لم تكن محبوبة. كان لها شكلُ جرّةٍ عتيقة، ووجهٌ تميل فيه أسنان الفكِّ السُّفلي والعلوي خارجَ الشفتين. تمشي قفزاً على قدمين صغيرتين، تنوءان تحت ثقل مؤخِّرةٍ بارزة جداً. تبتسم على الدوام، وتجاهدُ لزمّ شفتيها إن لزم الأمر.

نساء العائلة يتداولن قصة زواجها من الدكتور أديب بهمس وبدهشةٍ لم تخفف من استنكارها السنون. فأديب كان وسيماً وثرياً، والغموض لفَّ حياته الخاصة منذ دخول عطاف إلى بيته زوجةً ثانية، بعد أن طلّق زوجته الأولى "بدور" آية الجمال البهي، كما توصَفُ كلّما استُرجِعَتْ ذكراها.

لم يُرزق الدكتور أديب بالأولاد. كان الهمس يتعالى دوماً بقصة واحدة، تبدو في روايةٍ رومانسية، وفي روايةٍ أخرى مهينة. الروايتان تُستهلاّن بأن عطاف كانت تعمل ممرضةً في عيادة الدكتور، وهنا تختلفان: فالبعض يقول بأن قصة حبٍّ عصفت بقلبيهما، فكلّلها بطلاقه من زوجته ليتوّج عطاف أميرةَ حياته. والبعض الآخر يؤكِّدُ

بأن عطاف لم تترك وسيلةَ خداع أو كذب لتشوّه صورة بدور في عيني زوجها وتسرق الرجل من بيته بقسوة، وحجتهم في ذلك أنه لا يمكن لرجل عاقل أن يستبدل غزالةً جميلةً كبدور بمسخٍ قبيحٍ كعطاف.

لم يكن مهمّا للزوجين على ما يبدو أيُّ الروايتين هي الحقيقة. فتركا للناس مساحات الثرثرة ليرتعوا فيها، وعاشا حياتهما معاً كزوجين مثاليين لم يستطع أحد يوماً أن يدس أنفه في ثقب بابهما المغلق. وأجبرا الجميع على تقبُّل الواقع والتعايش معه.

كان لعطاف قدرةٌ جبارةٌ على السيطرة، ملأت بيت أديب بالدمى بدل الأطفال، من دون أن يجرؤ قريب أو صديق على السؤال عن السبب. لكن رحى فتاوى المؤمنين لا تهدأ طحناً وجعجعة:

- الله أكبر، لا يضرب بالعصا!
- ذنب بدور برقبته.
- هذا عقاب إلهي، حقُّ ربنا لا يضيع.

وصار أديب طفلَ عطاف المدلّل، وثارت زوابع غيرة النسوة غير القادرات على مجاراتها في مهارتها تلك. علّقت صورتَها شبه عارية عمداً فوق سرير غرفة نومها لتراها القريبات عندما يدخلن ليضعن معاطفهن أو ليؤدين الصلاة. تضحكُ لنكاته ضحكةَ غنج رنانة، لم تجرؤ على مثلها أجملُ الجميلات وأصغرهنّ سناً وأكثرهنَّ

استهتاراً بالتقاليد. تقرأ له الجريدة، تأتيه بحبة الدواء قبل أن يطلبَها، تمسح شعره من حين لآخر، وتناديه "ديبو"؛ وهنا يكون عبق الفيظ قد فاح حدّه في وجنات سيدات العائلة المتحفّظات.

"أبو رامي"، اللقب الذي يُعرفُ به الدكتور أديب، لازمه حتى ساعة وفاته كما لازمه صمته. وفي ليلتها، اتصلت عطاف برجال العائلة بصلابة نادرة لتصعَقَهم بالخبر، خرجت إلى إخوانه المجتمعين في غرفة الضيوف منتظرين أن تسمح لهم بالنظرة الأخيرة، أعطتهم آخرَ وصاياه الشفاهية بجرأة واقتضاب، زامّةً شفتيها بصعوبة فوق أسنان فكّيها البارزة:

- أبو رامي أوصاني ألاّ أدخل في العدّة.

اتشحت بالسواد أربعة أشهر وعشرة أيام دون أن تعتكفَ منزلها. فبعد أربعين سنة من الزواج الناجح، الغارق في أسرار صمته، لم يعد مهمّا من الذي كان عاقراً.

وعادت الهمسات تفرّع الحكاية بين منتقدٍ ومشيد، فلن يفهم الآخرون أن الإرث كاملاً لن يعوّض عطاف عن فقدان طفلها الوحيد.

تاريخها أوانُ سردها

أصالة

الأحلام الأولى لا تموت.

الحكاية الواحدة، تلك القديمة، الموغلة في الطفولة، والتي تتوقف الحياة من حين لآخر لتشرب من ضفتها رمقاً. هي ذاتها العابرة الأخيرة بين سكرةٍ وسكرة، وتتجسد قبل الشهقة وعلى جفن مفتوح.

حتى خُيّلَ إلينا أنه ابتسم، وأنه بدا جميلاً ومكللاً بالرضا رغم كل شيء!!

الكومسيونجي

يسترسل إدغار فتلجمه كاتينا:

– هل ستسرد الملحمة كلَّها الليلة؟؟!!

يتابع دون حرج، يتجاهل نهرها له كطفل اعتاد الملاحظات، أو ربّما لأن الجهاز المعلّق خلف أذنه اليسرى صار قديماً.

قد أكون الوحيد الذي لا تزعجه أبداً حكاياته المكررة، فبينما ينسى الثمانيني أنه سبق وأتحفنا بالقصة ذاتها عشرات المرات، أتنبه لالتقاطِ ما فاتني من تفاصيل وما جدَّدَه من إضافات.

أن أجدَ في ثرثرته أفكاراً كثيرةً تسعفني في كتابة زاويتي الأسبوعيّة في الجريدة؛ ليس السبب الوحيد الذي يشدُّني أنا شخصياً لإدغار. هناك شيء أعمق أتفهمه أنا ولا يجد له الآخرون أيَّ معنى. فكيف يمكن لي أن أمرِّرَ حديثاً حافلاً بالأسماء الكبيرة، نزار قباني، كوليت خوري، غادة السمان، عمر أبو ريشة... خاصةً عندما يكون الكلام حميماً جداً من نوع: "كان أبوها صاحبنا.. كانت أمُّها زبونتنا.. كان يصيّف في بيتنا"!!

أيُّ شخص حتى الأقلَّ فضولاً منّي سيحاول النبش في ذاكرة إدغار عن هؤلاء. إنها أسماءٌ تعني الكثير للقارئ. أسماءٌ لم تشغل

عالم الأدب فقط في أيام عزّه ولكنها شغلت المجتمع أيضاً، وإحياؤها من حين لآخر إنعاشٌ لذاكرة مدينةٍ تحجَّبَتْ بالعتمة، يزدحم على جسدها الغرباء، وتخريش في صحفها أقلام المتسولين.

رضوخاً لإلحاحي، دعا شقيقي الأكبر الجارَ وزوجته إلى عشاءٍ بسيط، ملوِّحاً بزجاجةِ نبيذٍ فاخرة كإغراءٍ لا يقاومه العجوز، وحول الزجاجة تدفَّقَتْ ذكريات الماضي مزّةً وحرّيفة، واختلط بمذاقها الواقع بالأحلام. كانت تربط أخي الذي يكبرني بعشر سنوات علاقةٌ وطيدة بالجيران، بحكم إقامته في منزل العائلة القديم. وحيُّنا بالنسبة له رحمٌ حنون ورحمةٌ أبديّة. فنجانُ قهوة الصَّباح على الشرفة يساوي عنده كلَّ المغامرات الممكنة بعيداً عن الوطن، وابتسامةٌ من جارةٍ عجوز تكفيه ليمضي النَّهار كلَّه في سكينةٍ وأمان. منه تقصَّيتُ معلوماتي الأوليّة كمحققٍ يتبع الخيوط الأولى ليصل إلى آخر الطريق:

– ماذا كان يعمل إدغار في شبابه؟ هل كان صحفياً أم من أهل الفن؟؟

– لا شيء من هذا، إدغار كان كومسيونجياً يمتلك محلاً للزِّينة والكماليات في سوق النسوان، يسافر كثيراً لجلب البضائع ويعرضها على سيدات دمشق، ومن مهنته اكتسب معارفه.

الشّبه الشّديد بين إدغار ونزار قباني الشّاعر المعروف، يشدُّ الانتباه، وهو البذرة التي يلفُّ حولها العجوز شرنقة حكاياته:

- على شرفة فندق بلودان الكبير كانت الفتيات تتهامس وتغمز لي، وتتجرّأ على الاقتراب من طاولتي "مو حضرتك الأستاذ نزار قباني؟" وأنا كنت أسعد بالتباس الشبه وأسوق الحيلة "نعم، أنا نزار". كنَّ يرحِّبن بمعرفتي ويُشدِّدْنَ بشِعْري ويقلن بأنهنَّ من أشدِّ المعجبات بي...

يلتفت إلى زوجته:

- احك لهم يا كاتينا أليس هذا صحيحاً؟

وبين الملل والسأم من تكرار الشهادة، يلتمع افتخارٌ في عيني العجوز تخفيه بلحس تجاعيد شفتيها المطليَّتين بلونٍ وردي فاقعٍ وتُخرج زفرةً من بينهما مدغمة معها كلماتٍ مقتضبة:

- إي صحيح كانوا يخلطون بينه وبين الشاعر.

- اسألوها؛ مرة جاء محمد عبد الوهاب نفسه وجلس على طاولتي في بلودان معتقداً بأنني نزار، ولم يتنبه إلى أنّني لست هو إلا بعد أن توغّلَ في الحديث عن مشروع سفر؛ عندها اضطررتُ للتعذُّر والانسحاب بالحجة وكاتينا تضحك، كانت كاتينا في صغرها آلهةً يونانيةً للجمال وكنّا نلفتُ الأنظار كثيراً. أليس كذلك؟؟ قولي لهم قولي..

- صحيح كانوا يعتقدون بأنَّه هو.

كاتينا كانت جميلة حقاً، عجوز يونانية الأصل دمشقيّة المولد والمنشأ. شعرها القصير جداً يعزّز ملامحها الغربية الدقيقة، ولهجتها الشاميّة تضيف إلى هيئتها نكهةً خاصة، كرشفة نبيذ وراء

لقمة كبة نية. قميصها مزرّرٌ إلى آخر الياقة وتكشف تنورتها الضيقة عن ساقين مضمومتين تتشعّب فيهما العروق الخضراء. أظافرها مصبوغة بيد مرتجفة بلون عنّابي داكن يلوث أطراف الأصابع، وتعصر معصمها سوار ثخينة من الذهب، لم تخلعها منذ زمن بعيد.

– وهل قابلت نزار مسيو إدغار؟

يسمع إدغار سؤالي بوضوح لكنه يجيب في منحى آخر حسبما تقتضي حكايته:

– ذهبت في زيارةٍ إلى كوليت خوري، وهي تقطن قريباً من حينا جناين الورد، حفيدة رئيس الوزراء الراحل فارس بك الخوري، وكان لها قصة حب طويلة ومعروفة مع نزار. المهم ذهبت وعرضت عليها نفسي..

تقاطعه كاتينا:

– ما بيقولوا عرضت عليها نفسي، وهل أنت قطعة قماش أو قلم حمرة!!

يتابع العجوز متغاضياً عن المقاطعة الفظّة:

– قلت لها يا ست كوليت، وكان هذا في عزِّ شبابي، إذا أردتم عمل مسلسل أو فيلم عن حياة نزار قباني أنا مستعد للعب الدور. لن تجدوا أنسب مني للقيام به.

أوليته جلّ اهتمامي هنا:

– وماذا كان ردّها؟

– قالت لي: ابحث عن مموّل وإن وجدته سنفكر في الموضوع. نزار شاعر كبير ويستحق عملاً خالداً.

يبتسم إدغار، وكأنه فعل ما توجّب عليه فعله آنذاك من أجل حلمٍ أصيل.

في الحقيقة كنا كلنا نبتسم، وملأت لإدغار كأسه ورفعته إلى أعلى:

- في صحتك مسيو ادغار.

رد العجوز:

- بصحة نزار..

٢٠٠٥-١٠-١٧

من أجل البقاء

بعد الحرب العالمية الأخيرة، انقرض كل شيء، فبخلاف البشر والحيوانات والنباتات الذين راحوا ضحايا القنابل الذكيّة، وبخلاف الأبراج المشيدة التي لم تصمد طويلاً، ماتت الروح القتالية في النفوس القليلة الباقية، الروح اللازمة لبدء حياة جديدة.

النساء فقط استمرَّ مشروعهنَّ الأزلي، وأنشأن متجراً واحداً فوق الأنقاض لبيع أحمر الشفاه، وحوله نُسجت أولُ خيوط القبيلة، وظهر أطفال بعد حين يحبون ويلعبون..

مثل رَجُل

أعمل طيلة النهار واقفةً على قدمي ويداي في حركة مستمرة. تخفف محبتي للمكان آثارَ الإجهاد ودبيبَ الألم الصاعد من باطن قدمي متسلقاً عمودي الفقري ومتشبثاً بتشنجٍ بين كتفي، متكوراً في نقرتي النافرة.

أجمل الأفكار تلك التي تنفذ حسب رغبتنا، وتخرج متوافقةً مع التوقعات. الزجاج الحاجب عوضاً عن الجدارن، والمرايا الطويلة المسوَّرة بإضاءةٍ تجمّل شحوب زبائني وتجعل من أجسادهم أكثر طولاً ورشاقة. لن أتحدث عن التكلفة العالية للتصميم؛ فهذا الحديث سارقٌ للمتعة، بيد أن الإشراق الذي يكتسي الوجوه الشاحبة ما أن تدخل عندي يحلل كل قرش صرفته من تعبي وشقائي.

أستقبل الشمس من كل الجهات حتى لحظة مغيبها، عندها أسدل الستائر العازلة وأستبدل فيروز بالأغنيات الصاخبة، فيتحول الجو إلى مزاج التسلية وتتقاطع معه الثرثرة والضحكات وتعليقات الفكاهة.

زبائني اعتادوا طقس الشمس والأغنيات والقهوة الدائرة بدون

حساب. ومنذ ليلة الافتتاح لم أسمع تذمراً من غلاء الأسعار. صار الجميع يعرف أنني مختلفة وأن الدخول عندي يستحق ثمنه.

صناعة التجميل سوقٌ بلا كساد، فقط عندما لا تتقصك المهارة، ولا أعني مهارة تصفيف الشعر ووضع المساحيق وصنفرة الوجوه والأجساد؛ بل أقصد مهارة التسويق وعقد الصداقات وخلق علاقة وطيدة بين الزبائن والمكان، بلغة المهنة تحديداً نسميها جرّ الرّجل.

وباعتبار صالوني هو الأول في المنطقة كلها الذي يجمع تحت سقفه بين الجنسين، اعتُبرتُ ثائرةً على السائد، وحوربْتُ كثيراً، فأُغلق المحل مرتين، وخط سكان الحي مراتٍ عديدةً كلاماً طال سمعتي وسمعة محلي بالسوء. وكأي تجربة جديدة كان لي نصيب من الأنصار والمشجعين. ووصل الجدل بين أعداء الفكرة والمتحمسين لها صفحات الجرائد والمجلات. حتى طبقت شهرتي الآفاق وازداد عدد زبائني الذين يأتون بدافع الفضول أولاً ثم يتحولون بمهارات الاستقبال والدلال إلى أصدقاء ومدافعين.

كانت هناك حالات مستعصية، كالذين نشروا آراءً متطرفة حول اضمحلال الفروق الشكلية بين الجنسين، وهوس التجميل كفكرة مستوردة تقف وراءها أطماع عولمية في إبقائنا مشغولين بزينة السطح!!

من ذلك النوع كانت الآنسة جهاد، جاءتني أول مرة لتجري معي لقاءً صحفياً تناول عملي وجرأة الفكرة وهموم المهنة. كان أول لقاء صحفي مباشر أتحدث فيه عن صالوني الفريد في الشرق

الأوسط، وعندما قرأته بعد النشر صدمتني نبرة العداء الواضحة، التي تخللت السطور والتي لم تكن ظاهرة إلى ذلك الحد ساعةَ إجراء الحوار.

لم أكن أتخيل أبداً أنها ستعود، خاصة وأنني تجاهلت الإساءة واحتفظت بالصفحة في الأرشيف. لكنها جاءت مرة ثانية، فاستضفتها وابتسمت في وجهها وزودتها بالمعلومات التي طلبتها لتحقيق آخر تجريه عن انتشار ظاهرة عمليات التجميل.

تأملت عضلات كتفيها النامية ورقبتها الثخينة وحوضها الضامر. تقترب من خمسينها بثقة تاركة فضة الشيب بين خصلات شعرها المربوط إلى الخلف. وجهها الحنطي النحيل متروك على طبيعته بحاجبين عريضين وزغب شارب خفيف. تحيط بالعينين العسليتين وبالشفتين تجاعيد غائرة في الزوايا وأخرى تطفو على مساحة الوجه حسب التعبير. ولأن نظريتي تؤكد أن كل امرأة حباها الله بنصيب من الجمال، أثرت السخرية عندما امتدحت مشيتها الذكورية المتناسقة تماما مع بنطالها وقميصها الفضفاضين، وصوتها الأجش من تدخين مخلص طيلة ثلاثين عاماً. جوي خبير الماكياج، لم يرتح لجهاد أبداً:" ما بعرف شو عاجبك فيها، هي آخر امرأة يحق لها انتقاد اضمحلال الفروق بين الجنسين!!"، يضحك ساخراً..

لم أنجح في إقناع جهاد بتجريب أي من وسائل التجميل رغم زياراتها المكثفة للصالون. تعوَّدتُ هيئتي المريحة، تقول بثقة وهي تمج سيجارتها من بين إصبعين ثخينين. أصبحنا نفتقد غيابها إن

استغرق يومين أو أكثر. وفي آخر مقال لها عن حتمية تغيير عقلية الإنسان في المجتمعات المغلقة، صنفت صالوني في المرتبة الثانية بعد المقهى - الأكثر انتشاراً - كنموذج جديد لأماكن التلاقي بين البشر. وصفَتْ بدقة الحميمية النظيفة التي تنشأ من علاقة الإنسان بالآخر ما أن يشعر كل منهما بالرضا عن ذاته الخارجية، فكيف للعالم أن ينقلب رأساً على عقب ونريد من التقاليد والعادات والقيم أن تحفظ طريقتها القديمة المتوازنة دون تغيير؟! تساءلَتْ في مقال جميل ومعبر، قرأته بصوت عالٍ أمام جوي وتامي ودنيا طاقمي من صنّاع الجمال، بحضور زبونين من أشهر الممثلين. بل إن عينا جوي أدمعت حين وصلْتُ إلى مقطع تقول فيه جهاد: "إن الجسد قالب لروح الإنسان، ومن الصعب أن تهنأ أرواحنا في قالب مزعج وهي تزداد شفافية وحساسية بكل ما يواجهها العالم به من آلام متتالية".

بدأ الناس يتقبلوننا بشكل أقل تشنجاً، كنا نعلم جميعاً أننا نحارب صدءاً عمره مئات السنين، لكن الأضواء مبهرة، وصمودنا ودفاعنا في وسائل الإعلام، وفوزنا بالمسابقات، واستقطابنا لأشهر الشخصيات منحنا قوة دافعة لنؤمن أكثر بأهمية مشروعنا المشترك.

السيدات رأين في جوي وتامي رفقة مقبولة بعد أن كنّ يتحسسن من شكلهما الناعم، وحركاتهما الأنثوية. يسلمنهما رؤوسهن ووجوههن براحة أكبر، وهما يستمعان باهتمام لقصص النساء ويشاركانهن بأفكارهما المتحررة في إيجاد الحلول والمخارج

للأزمات، لتنظر السيدة في النهاية إلى وجهها في المرآة وترى الجمال برز على أيدي المحترفَيْن، وروحها أكثر خفة بعد أن وضعت عن لسانها عبء قصة مطمورة في القلب.

زبائننا من الرجال كانوا قلةً نسبةً إلى عدد النساء، غالبيتهم من الشباب، تتراوح أعمارهم بين الثامنة عشرة والثلاثين. أكبر زبون لدينا تجاوز الخمسين بأربع سنوات، أعزبٌ وحيد. يأتي بسيارته الفارهة خصيصاً ليسلم رأسه الصلعاء لجوي. يسأل ضاحكا:" أين هو الولد ذو اليدين المباركتين؟؟" مؤكداً أن وبراً جديداً بدأ يظهر منذ أن واظب على جلسات الماساج.

تامي أيضاً بشعره المصبوغ وبلوزاته الحريرية وابتسامته الدائمة يستقطب الزبائن، مهاراته تتجاوز استنبات اللحى في الوجوه الجرداء، وبضربة موس دقيقة يعطي للحاجب الأيسر مظهر الولد المشاكس، وللّحية الكثة مظهر الحلاقة القذرة، يمنح مقصه الذهبي الكثافة للشعر القليل والاسترخاء للشعر الأجعد، تكرر الزبونات أن يده خضراء وأن الشعر يسعد بين يديه.

مع تيجان الجمال الأنثوية وشوارب الذكورة كنا نتعامل يومياً ونكسب الأصحاب. الآنسة جهاد بصمود متفرد لم تدعنا نلمس شعرة من رأسها.

بعد عدة أشهر جاءت وسلمت وجلست وانتظرت حتى خروج آخر زبونة كنا نعدها لجلسة تصوير مع وكالة عالمية لعارضات الأزياء. أغلقنا الستائر، نظفنا المكان، وهي جالسة تشعل سيجارة من أخرى وتتصت لجورج وسوف يغني صياد الطيور. انتهينا،

وخجلاً منها بقينا نماطل والتعب يهدنا، وكل واحد منا يترقب ساعة الإغلاق ليهرول إلى بيته ويتمدد على سريره. مهنتنا صعبة نقضيها وقوفاً وأذرعنا معلقة في الهواء نصارع الرؤوس، نجامل الأمزجة، ونبتسم على الدوام وهي أصعب المهامّ.

بدت جهاد خجلة وتوشك إعلان نبأ خطير..

لحظاتٌ صمتت فيها الألسن وشجعتها العيون:

أول مرة تأملت فيها يدي كانت تكسوهما هذه العروق النافرة والبقع الداكنة، قبل ذلك لم يكن لدي وقت للتأمل ولا للمرآة. أردت أن أثبت أنني خلقت للمهمات الصعبة، غطيت حرب الخليج الأولى و كنت الوحيدة التي تجرأت على الذهاب إلى أفغانستان، وفي العراق نجوت بأعجوبة من أسر جماعات مقاومة انبثقت من ظلم طويل وأمل مفقود. عدت بعدها لأُكرَّم في حفل كبير مع زملائي الرجال، كان نصيبي من التكريم إعفائي كامرأة من المهام القاسية وتسليمي صفحة المنوعات، بينما كُرموا هم بتقلّد المناصب الأخرى، الصفحة الأولى والسياسة والاقتصاد والمحليات والحوادث.

قريباً سيعلنون في الصحيفة عن تدوير في المناصب، فهل تساعدونني على مظهر يؤهلني لصفحة أخرى غير المنوعات؟؟ مظهرٌ مناسب لمهام قاسية؟؟ ربما لو قصصتُم شعري..!!

تجاهلها التاريخ عامداً

مخدّرات

يحكى أن فتاة جميلةً خاضعة خانعة، رضخت للذلّ واحتملت المهانة، فكافأت الأقدار سلبيّتها بتزويجها بمعونة جنيةٍ من أمير لحقها بحذائها في أرجاء المعمورة!!!

هذه القصة السخيفة تُسرَدُ على مسامع الفتيات الصغيرات أمام الأسرّة، لترتطم الأحلام بسقف الجمال وانتظار المعجزة والعريس. ثم يتحدثون عن محدودية أفق المرأة، وحقوقها المسلوبة، والمجتمع الذكوري المسيطر!!!

المقاس سبعةٌ وثلاثون

خالتي ليست سيئةً إلى ذلك الحد..

تقولها سندريلا، ولا تكذب مشاعرها عندما تتحدث عن الخالة.

الأرامل حالة إنسانية يجب التعاطف معها بوعي كبير. امرأةً على مشارف الخمسين بلا رجل وبلا أمل في الحصول على آخر. وبحمل ثقيل من بنات إحداهن ليست لها. لو كانت مكانها لما استطاعت الصبر. عدوانية بنات خالتها أيضاً حالة إنسانية مفهومة، فالجمال في عصر كهذا، يقيّم زيف الشكل ولا يقبل وجه الحقيقة، أصبح محكّاً مقروء النهاية.

لا فائدة من التظلم..

تفهم سندريلا جيداً حقيقة الموقف، وتساير الوضع بترفُّع واقتناع. من حقِّ كلِّ إنسانٍ أن يحافظ على وجوده وفرصته بالطريقة التي يراها مناسبة. لذا كان لا بدَّ من خطَّةٍ تحفظ مشاعر الجميع من التجريح، وتوصلنا للغاية بأقل خسائر.

حاضر يا خالتي، ليس لنا بركة إلا أنتِ..

بحنكة تداور الفتاة اليتيمة الظُّروف، وتصنع من إشكاليّة العلاقة الأزليّة مع زوجة الأب درساً إنسانياً. فما فائدة القراءة إن كان الزمن سيعيد نفسه لنرتكب نحن الأخطاء ذاتها؟! ستذهب إلى الحفلة إذا برضى الجميع وعلى الجنية أن تعود من حيث أتت. أستطيع أن أتدبَّر الأمر بلا معجزات، قالت سندريلا محاورةً نفسها وهي تحشر الغسيل الأبيض في الغسالة الأوتوماتيكية.

- ساندي، خذي السيارة وأحضري الفساتين من عند أبو سمير الخياط.

- تكرم عينك.

فكرت أن لا داعي لارتداء فستان والارتباك بضيقه وطوله وفتحة صدره. بنطال جينز يكفي ببساطة لإظهار المفاتن ولفت الأنظار. أرسلت رسالة قصيرة بالهاتف النقال" المقاس ٣٧ ياعزيزي الأمير". يمكن ترتيب كل شيء على الطرقات هذه الأيام.

بالوعود الكثيرة وقوة الإقناع استمالت خالتها:

- من الأفضل أن نجرَّه للعائلة، ونستفيد كلنا عوضاً عن أن نتركه يطير من أيدينا بسبب صراع لن يقتصر على المنافسة بيننا.

- كثيرات سيقفن الليلة في الحلبة، ومن الأفضل أن نترك ساندي تسير في مخططها المرسوم، تنحينَ جانباً ولا تقفن في طريقها. نصحت الخالة بناتها معجبة بقوة الفتاة وقدرتها على السيطرة.

تذكرني بشبابي هذه البنت، تفكر أرملة الأب، كنتُ مثلَها، عندما أضع شاباً في رأسي لا أعود خائبة أبداً. لم يكن قد مضى

سنة على وفاة زوجته عندما التقيت والدها في سهرة رأس السنة. وجدته وحيداً وتائهاً مرتبطاً بابنته الوحيدة. أظهرت له فنون الأنثى، أم وبناتها ويلتمُّ الشّمل الذي يتوق إليه. كانت البنت تظهر انقياداً عجيباً مشبوها أقلقني، وأثار حيرتي وحيرة الناس:

- هل تعتقدين أنها بلهاء أم خارقة الذكاء؟

لم أعرف الإجابة عن هذا السؤال، ولم تترك البنت ثغرة لأنفذ منها إليها. مررتنا جميعا تحت قوس إرادتها وتركتنا في حالة ارتباكٍ ورضا.

لا فائدة من العناد. لن يفهم الناس الذين تعودوا أنماطاً من التعايش أن هكذا أفضل. دواء الغيرةِ تَفهُّمُها. بالغت ساندي بإطراء بنات الزوجة، فصار هذا الإطراء أكسيراً يعشن عليه ويطلبنه في الصباح والمساء. والليلة أخذ الإطراء منحىً آخر..

- إن استطعتُ انتهاز الفرصة ومغادرة البيت، سيصبح مُلْكاً لكنّ ولن أحتاج وأنا زوجة أمير لإرثٍ تتقاسمنه دون منازع، دعوني أجرِّب وحدي ضربة حظ..

تنحين جانباً يتابعن فصول الحكاية، كانت قصيرة هذه المرّة، فصلٌ كامل حُذف منها. لا جنية ولا ملاحقة بفردة حذاء، فالمقاس كان لديه مسبقاً، حين اشترى لها بموكب رسمي ما ارتدته في الحفل لتحوز إعجاب والديه.

قالت الخالة: اخترتَ زينة البنات يا أمير، ساندي أميرة وتستاهل كل الخير.

حملت الخالة المولود الأول بزهو كبير، وزوّجتْ بناتها من رجال البلاط، وصارت بوابة القصر تفتح بسهولةٍ لجميع أفراد العائلة.

٢٠٠٧-١-٢٢

...

لا دور لدينا لنص قصير، اكتمل المشهد اليوم، ربما لو عدتَ غداً..!!

كومبارس

عندما رأيت "وسيلة" لأول مرة شهقتُ وكدت أعضّ على لساني...

فيما بعد؛ صارت رؤيتها شكلاً من أشكال التعذيب، تحني ظهري وتعقد حاجبي، وتضيف لأسباب نفوري من الآخرين جحيماً جديداً.

المشكلة أن صُدَف لقائي بوسيلة كانت أشبه بمسرح المناسبات، في زيارات العيد ومجاملاته، وعلى موائد رمضان. فتقتل صورتها فرحتي بمقاربتي صلة الرحم وروحانية الإفطار، وتذكرني بالقطيعة والتخمة التي تصم العالم بالعار.

كلّما فتحَتْ لي الباب وخرج وجهها الأجرد لملاقاتي، أنفرطُ ألماً من دنيا تطبع نسختها السالبة في وجه طفلة. بعينين ذاهلتين دوماً من جحوظ خفيف يقلب جفنيها السفليين ببلاهة، ورأسٍ مكسوةٍ بغلاف شوكي كجلد قنفذ مجزوز، تغطيه بأمر الست بمنديلٍ يصل إلى خصرها. بينما تكشف أكمام "بيجامة" صبيانية عن ذراعين عاريتين من الصَّحَّة، نحيلتين كعودي رمّان.

لم تكن كياستي أصيلةً لأتقبل وجود خادمةٍ من هذا الصّنف

كأمر اعتيادي. تجربتي مع الخادمات لطالما شابتها مشاعر مختلطة؛ عطفٌ واشمئزاز، لطفٌ وعدائية، خجلٌ وجرأة، احترام وغيرة. أريد أن أختال بثوب النعمة ولا أحتمل رؤيتهن يرفلن بأسمال العوز. أريد أن أصعد سلالم الرّفاهية ولكن ليس على أكتافهن المحنيّة، أريد أن أتقمّص حياتي ولا أحتمل سماع تصفيقهن. علاقة شائكة ربطتني بالعديد منهن في ظروف مختلفة. فلم أنجح يوما بالتربُّع على عرش السيدة، ولم أتجرأ على النزول لمرتبة خادمة.

تأرجحت دوما بين أدوارٍ لا تليق بي.

❖ ❖ ❖

دخلت "وردة" منزلي بتزكيةٍ من صديق، قال لي: "تعمل دون أن تنتظر أمراً، وإذا شعرتِ بالملل فهي شخصيةٌ مسلية جداً".

مع وردة لمستُ فحولةَ النقص في ذاتي. كانت أول مرة أشعر فيها بالضآلة أمام أنثى لا تملك من أمر أنوثتها ملمحاً ظاهراً سوى اسمها، ومع ذلك؛ دخلَتْ فقاعتي كدبوس، وأفرغَتْني من قوس ألواني الهشّة. لم يكن ذلك بسبب قامتها الفارعة وجذعها الضخم كسنديانةٍ كهلة، ولا وجهها الأسمر المجدور بحبٍّ الشباب كمصفاة صدئة، ولا ابتسامتها الدائمة بتكشيرةٍ مرعبة تكشف عن لثةٍ سوداء، ولا حركتها المدروسة التي جعلت من أثاث شقتي ألعاباً بين كفيها القويتين.. لا، كل ذلك كان مألوفاً بالنسبة لامرأة غير مترفة مثلي، فتحَتْ عينيها على وجوهٍ معفرة بالأسى، أحاطت بي أنا الطفلة الناتئة من باطن الأرض كعشبة ضارّة في ملجأ الأيتام. حتى

ضحكت الأيام لي في غفلةٍ من القدر أو صحوةٍ منه، فأصبحتُ ابنةً بالتبني لعائلةٍ تملك من المال ما يجعل أمر الزراعةِ في غير أرضها أمراً رحيماً وحدثاً سعيداً.

بدأتُ أعطي وردة أوامري بتصنع: هذا المطبخ، لا تضعي الأواني المبتلة في الخزائن قبل تجفيفها، ولا تلمسي أزهاري المجففة بفوطة رطبة. انتبهي للتحف الصينيّة...

وبعفوية قاهرة فاجأتني: مدام عندك أغاني لفريد؟

- مين فريد؟

- فريد الأطرش، أنا كتير بحبه وبمسح من قلبي لما بسمع صوته، حطيلي فريد وشوفي كيف الأرض بدها تصير مرايا.

كانت وردة شابة أكثر بكثير من مظهرها المخادع، حتى أن ثيابها الفضفاضة عندما تركع وتمط جسدها متموجاً وراء حركة يديها بالممسحة، تشدُّ على ردفيها، وتبدي ليونة خصرها. كانت تدمدم طيلة الوقت بالأشعار، فأُبهَتُ لسلامة لفظها وحسن إلقائها فتبتسم وتجيب دون سؤال:

- أنا طالبة بكلية الحقوق، وأكتب الشِّعر...

ينشق جبلُ أمنيات متكلّس في داخلي، وتكبر الهوّة بين شِقّيه، وأصرّ على وضع كلٍّ منا في مكانتها:

- بإمكانك أن تأكلي أيّ شيءٍ، إن جعت.

تكيل لي الصاع صاعين:

- شكرا مدام مالي جوعانة.

❖ ❖ ❖

تنظر إليّ وسيلة نظرةً لا يفهمها أحد، ينتزعُ منها ابن

مخدومتها كأس لعصير ويرميها على السجّادة. تنظر إليّ كأنها تُشهدني، وتطالبني بالحماية. أقف أتابع السيدة، تنهالُ عليها نحراً ودحراً، وفي أعماقي تكتم طفلةٌ فقيرةٌ بكاءها، ويكتوي لساني بمرارة حقيقتي فأخرس. زند السيدة الأبيض يرتجّ كفخذ مصارع، ووجهها ينفث كخنزير تلقّى طلقةً لهاثَ الشحم المتكتل حول أنفاسها، وتتحول وسيلة بين يديها إلى دمية خرق، ثم لا يرتسم على وجهها أيُّ تعبيرٍ. تنهزمُ إلى المطبخ.

أحاول التكفير عن جبني، ألحق بوسيلة، أتظاهر بأنني أبحث عن مطفأة سجائر، لا تلتفت لخطواتي. أهمُّ بمسح شعرها فتنفض عني كتفها وتهرع تأتيني بما أريد، ولا تتنازل بالنظر في عيني. تشيح عني باحتقار وتدير ظهرَها لي، تتابع فرك السجّادة بيديها الصغيرتين وأسمعُ بين شفتيها المطبقتين لحناً حبيساً، يداعب نحيباً ويُقصيه إلى الداخل.

تفاوضْتُ كثيراً مع قريبتي المفترضة، تلك الوحيدة التي قبلت الاعتراف بي وقرّبتني منها وتقبّلت وجودي بين أفراد العائلة، توسّمت بإنسانيّتها خيراً وقلت لها: أريد وسيلة. شهقت ونعقت ولوّحت بيديها كوحش يهم بالانقضاض:

– لاااا كل شيء إلا وسيلة، لا أستغني عنها هي مثل يدي ورجلي، بدونها أتعطل.

غادرتُ، وبقيتْ وسيلة متجمدةً في مكانها تفرك بلا وعيٍ مساحةً زجاجيةً لامعة، لا غبار عليها.

❖ ❖ ❖

وردة كانت ترفض ملابسي، وترفض هباتي، وتضعني تماماً حيث تراني مناسبة:

- يا مدام مقاسك أصغر بنمرتين.

أقدمُ لها شهريّتها، فترفع يدها بأنفة وتقبّل ظاهرها:

- خلّي علينا، مستورة...

تغيظني حتى المرارة، تتطاول إلى حيث لا أصل، حرّة وعرق جبينها لا يقدَّر بثمن.

جمعني الزمن بها ثانية في المحكمة الشرعية بعد سنوات طويلة، كنت أخلّص معاملةً لأطالب بحقّي في الوصيّة من أقرباء الأسرة التي تبنتني، بعد أن تيتّمْتُ من جديد.

دافعَتْ عني وردة بشراسة في المحكمة وقالت لي: "لن أنسى أفضالك عليّ..."

عضضتُ لساني وكتمتْ طفلة الملجأ في داخلي بكاءها.

ككومبارس اللحظة الأخيرة، مشيتُ بلا أثر، وودعتني وردة بانحناءة بطلةٍ أولى فردت الحياة لها خشبة المسرح، وصفَّق القدر إعجاباً.

وردة وحدها تعرف متى حدث ذلك،

وصونا لكرامة الأبطال رفضت إخباري

الفهرس

أسلوب جديد	7
المهرة يا سيادة القائد	9
قوى خارقة	15
فتوحات أول كذبة	17
لجوء	19
مخلوق	21
كيمياء	25
علامةٌ فارهة	27
عِرْضٌ	33
قضيّةٌ خاسرة	35
أخطاء شائعة	41
الأرض الواطية	43
قوالب	49
المستثنى بالقراءة	51
تجربة	57
رسـمٌ بياني	59

أنستيزيا 67
سقيفةُ بني كركب 69
سِفْرُ المطر 75
في المحطة مرتين 77
وصوليّ 87
بقعةٌ فاضلة 89
انتر/ نت 93
لقاءٌ افتراضيٌّ على أرضٍ عربية 95
يا أمن يا.. 101
بصيصُ خَطَر 103
شريعة 105
أُضحيَةٌ بلا عيد 107
تطرّف 111
بروفةُ رقصٍ أخيرة 113
عبرةُ القراصنة 121
ورقةُ نعيٍ للذّاكرة 123
شَجَاعة 129
أدبٌ نسوي 131
أشياء 135
رحلةُ سلَّةِ المهملات 137
ترويض 141
أنثى النَّقيض 143

خُلاصة 147
سكّان الطّابق العاشر 149
طموح 155
مهمةٌ فاشلةٌ لملاك 157
الجحيم 163
قصة مثيرة للجكر 165
أصالة 169
الكومسيونجي 171
من أجل البقاء 177
مثلَ رَجُل 179
مخدّرات 185
المقاس سبعةٌ وثلاثون 187
... 191
كومبارس 193

كانا يتعانقان في التّدريبات كبجعتين، أو كحيّة وشجرة في أسطورة الخَلْق. يستقيمُ جسده أكثر كلّماً تسلّقَتْ قامتَه الباسقة، لتبدو كشِراع مفرود للرّيح ويصبح هو كصاري السّفينة يدلّ عليها مهما جنّت الأمواج. نشأت بينهما لغةٌ خاصّة، وفي المرّات القليلة التي تحادثا فيها خارج أوقات العمل استعانا بالحركة لايصال المقصود من الكلام. كان بإمكانه أن يخفيها في حضنه تماماً، ويطيبُ له أن يلُمَّها بين ذراعيه وساقيه حتى تختفي ككنغر صغير في جراب أمّه. شيءٌ من سطوة المعلّم وآخر من هيمنة الذكورة استشرى بينهما. تنصاع له دون نقاش بشيء من ولاء التّلميذة وآخر من ضعف الأنوثة. تستطيبُ الانسحاق فتثير فيه غريزة التملّك. وفي مراحل متقدّمة صارت قسوته ملحَ العلاقة. أشهر قليلة مضت ليعرفا أنّهما قطعتان من طينة واحدة، إحداهما جفّتَ وقست والأخرى مازالتّ في طور اللّين ..

لم يعد للآخرين وجود.

ISBN:2-84305-917-X
9 782843 059179